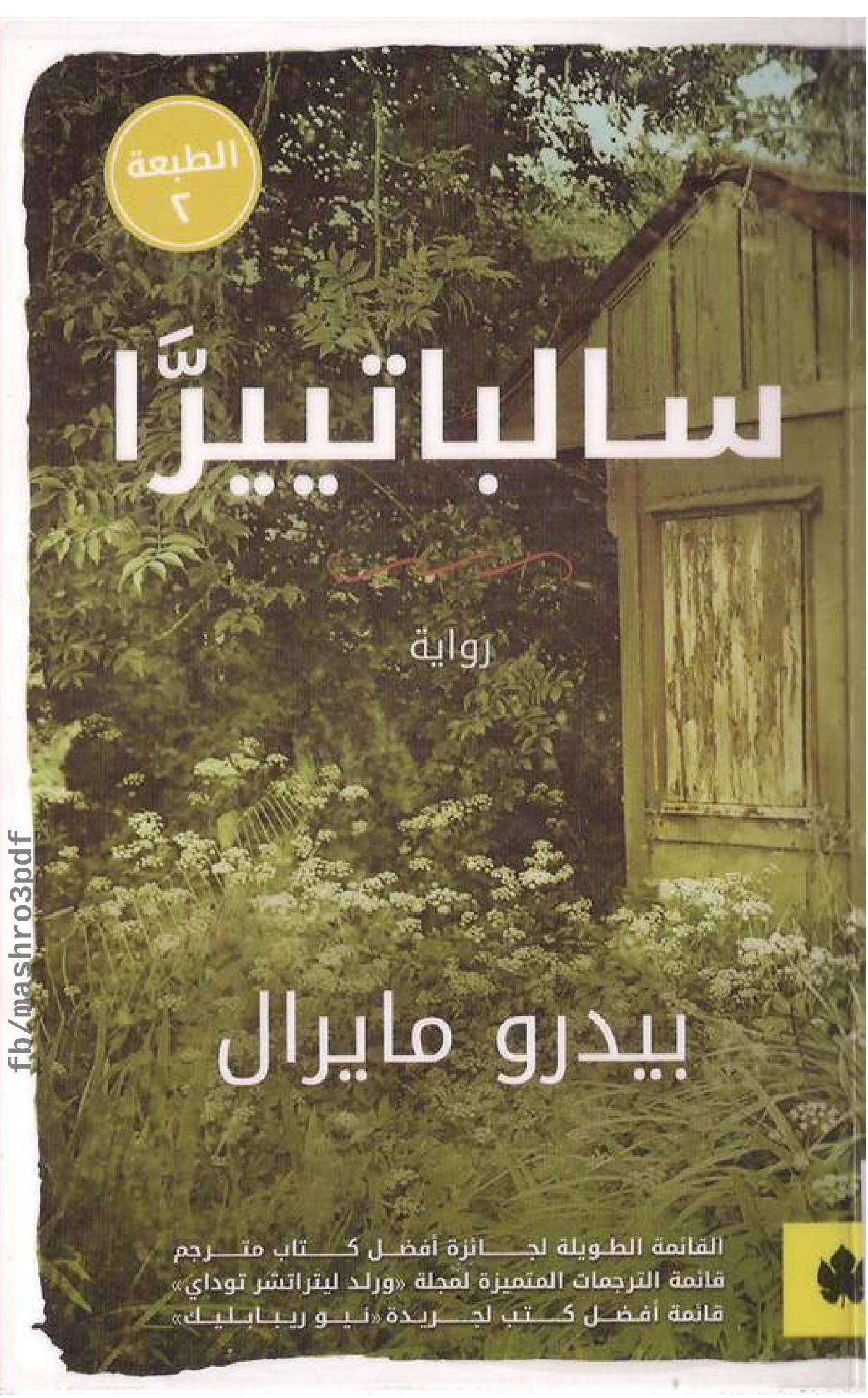

fb/mashro3pdf

بيدرو مايرال

سالباتييرَّا

رواية

ترجمها عن الإسبانية
مارك جمال

fb/mashro3pdf

١

اللوحة (نسخة منها) معروضة بمتحف «رويل»، بطول رواق ضخم ملتوٍ واقع تحت الأرض يصل بين البناية القديمة والجناح الجديد. عند نزول الدرج، تخال نفسك قد وصلت إلى معرض للأحياء المائية. على الجدار الداخلي كاملًا، الذي يكاد يبلغ طوله ثلاثين مترًا، تنساب اللوحة كنهر. بمحاذاة الجدار المقابل، ثمَّة أريكة يجلس الناس فوقها طلبًا للراحة ويتطلعون إلى اللوحة تنساب ببطء. تستغرق يومًا لإكمال دورتها. ما يقرب من أربعة كيلومترات من الصور تتحرك ببطء من اليمين إلى اليسار.

لو قلت إن أبي قد استغرق ستين عامًا في رسمها، لبدا وكأنه فرض على نفسه مهمة إنجاز عمل عملاق. لذا فالقول بأنه قد رسمها على مدار ستين عامًا أكثر إنصافًا.

fb/mashro3pdf

٢

يعود أصل هذه الأسطورة التي تُنسج حول شخصية «سالباتييرًا» إلى صمته. أو بعبارة أخرى، إلى خرسه، إلى حياته المجهولة، إلى الوجود السرِّي طويل الأجل والاختفاء شبه التام لعمله. إن نجاة قطعة واحدة من القماش فحسب تجعل قيمة تلك القطعة الفريدة ترتفع ارتفاعًا هائلًا. وكون «سالباتييرًا» لم يجرِ أي لقاءات صحفية أو يترك أي كتابات عن لوحته أو يشارك في الحياة الثقافية أو يُقِم معارض فنية قطُّ، يسمح لمنظمي المعارض والنقاد بملء ذلك الصمت بأكثر الآراء والنظريات تنوعًا.

قرأت أن أحد النقاد قد وصف عمله بـ«الفن الخام»، فن مصنوع بسذاجة وذاتية تعليم مطلقتين، بلا أغراض فنية. في حين تحدَّث ناقد آخر عن التأثير الواضح لفناني المدرسة الإضائية الإسبان («اللومينيستاس») من مايوركا

fb/mashro3pdf

في عمل «ساليناتيرًا». وبهذا تكون الطريق التي تعين على ذلك التأثير أن يقطعها طويلة، وإن لم تكُن مستحيلة: فمن فناني المدرسة الإضائية الإسبان إلى «برنالدو دي كيروس»، ومن «كيروس» إلى صديقه وتلميذه «هيربرت هولت»، ومن «هولت» وصولًا إلى «ساليناتيرًا». كما أشار آخرُ إلى أوجه شبه بـ«الإيماكيمونو»، تلك الرسوم الطويلة الملفوفة التي يتميز بها كل من الفنَّين الصيني والياباني. صحيح أن «ساليناتيرًا» قد اطلع على أحد تلك الرسوم، ولكنْ صحيح أيضًا أنه كان قد طور تقنية الاستمرارية الخاصة به بالفعل قبل الاطلاع عليها.

هذه التوضيحات بلا أهمية. لو أخذت أكذِّب الأخطاء الواردة فيما يُقال ويُكتب عن أبي، لما حظيت بوقت لعمل شيء آخر. عليَّ أن أعتاد كون عمل «ساليناتيرًا» لم يعُد خاصًّا بنا (أقصد بأسرتي)، وأنه في الوقت الحالي، يراه آخرون، يتطلع إليه آخرون، يفسرونه، يسيئون تفسيره، ينتقدونه، وعلى نحوٍ ما، يتملكونه. هكذا ينبغي أن تكون الحال.

كما أتفهم أن غياب صاحب العمل من شأنه تحسين العمل. ليس بسبب وفاته فحسب، بل أيضًا بسبب الصمت الذي أشرت إليه فيما سبق. إن كون صاحب العمل غير

fb/mashro3pdf

حاضر، لا يقحم نفسه بين المُشاهد والعمل، يتيح للمشاهد الاستمتاع به بقدر أكبر من الحرية. وفي هذا السياق، يمثل «سالباتييرًا» حالة قصوى إلى حد كبير. فعلى سبيل المثال، اللوحة من أولها إلى آخرها لا تشتمل على بورتريه ذاتي واحد؛ إذ لا يظهر «سالباتييرًا» في اللوحة الخاصة به. في ذلك اللون من ألوان اليوميات الشخصية المصورة، لا يظهر بنفسه. كمن يكتب سيرته الذاتية من دون أن يكون هو نفسه فيها. والأمر المثير للفضول أن اللوحة بلا توقيع. مع أنه قد لا يكون أمرًا على هذا القدر من الغرابة. ففي نهاية المطاف، أين يضع توقيعه على عمل بهذا الحجم؟

ومن بين الأكاذيب التي تزامن ظهورها مع الشعبية التي تبعت وفاة أبي، يعد ظهور الأصدقاء والمعارف المزعومين أشقها على الاحتمال عندي. ولا سيما مع الأخذ في الاعتبار أنه لم يكن في «بارَّانكاليس» تقريبًا من يعرف بأن «سالباتييرًا» يرسم، والقلائل الذين كانوا على علم بذلك لم يُبدوا اهتمامًا. منذ أسبوعين شاهدت فيلمًا وثائقيًّا، مصحوبًا بترجمة إلى اللغة الفرنسية، يتحدث خلاله عدد من مجهولي «بارَّانكاليس» ذوي الشأن إلى الكاميرات، يقصُّون نوادره، ويحكون عن شخصيته وأسلوبه في العمل. كما يظهر في الفيلم الوثائقي كلٌّ

fb/mashro3pdf

من عماتي اللاتي كنَّ يزدرينه، وسكرتير أنشطة ثقافية بالمقاطعة حقَّر من شأن العمل لسنوات، بل وحتى أرملة دكتور «دابيلا»، التي أبت أن تفتح لي الباب حين ذهبت لزيارتها. ظهروا جميعًا بتصفيفات شعر أنيقة، بمظهر جدير بالاحترام، يقصُّون نوادر زائفة أو حقيقية عن أبي. لو كانوا على الأقل قد استضافوا «خوردان» أو «ألدو»، لكان الأمر أكثر نزاهة.

fb/mashro3pdf

٣

في التاسعة من عمره تعرض «سالباتييرًا» لحادث بينما كان يتنزه مع أبناء عمه على ظهر الخيل في بستان نخيل على مقربة من النهر. كان «سالباتييرًا» يمتطي حصانًا أرقش ذا عُرف عاصف. هكذا رسمه دائمًا. كتهديد يعاود الظهور من حين إلى آخر على مدار لوحته، حصان يختلط عُرفه بالسماء الرمادية الكثيفة. جفل الحيوان وهو في أوج عدوه، وفي أثناء وثباته سقط «سالباتييرًا» عن ظهره، إلا أنه ظل عالقًا بِركاب السرج، معلقًا بين حوافر الحصان الأرقش الذي فر هاربًا بين الأشجار. هشم الحصان جمجمته وفكه، كما خلع فخذه، ركلًا ودهسًا.

وجده أبناء عمه بعد نصف ساعة في الجبل، وهو لا يزال معلقًا في الحصان الذي أخذ يرعى خلف شجيرة شوكية

fb/mashro3pdf

بهدوء. كان عمي يحكي أنهم حملوه عائدين ببطء وهم يبكون، ظنًّا منهم أنه قد لقي حتفه.

أنقذت حياته الطاهية، عجوز عوراء غطته ونظفت جروحه بخلطة من أوراق الشجر، ضمدته بثياب نظيفة ووضعته في السرير، فيما تهمس له في أذنه. عندما عاد جدي وجدتي من البلدة ورأياه على تلك الحال، سقطت جدتي مغشيًّا عليها.

في اليوم التالي مباشرة، حضر على ظهر عربة خيل طبيب مخمور، لم يمس «ساليناتيرًا» لحسن الحظ، لم يقُل أكثر من: «لا بد من الانتظار»، وواظب على الحضور كل ثلاثة أيام، لتناول نبيذ الغداء أكثر منه لعيادة المريض. لم أتمكن من اكتشاف اسم ذلك الطبيب قط، ولكنه صاحب دور جوهري في حياة أبي، لم يقتصر على تركه يتماثل للشفاء من دون إخضاعه لفصد الدماء وحمامات المياه المثلجة وفقًا لما كان ينصح به طب ذلك العصر، بل وتجاوز ذلك حين لمس تحسن حالته فأهداه ألوانًا مائية إنجليزية كانت تصل على ظهر المراكب القادمة من باراجواي.

بعد الحادث، لم يعد «ساليناتيرًا» للكلام. كان قادرًا على السمع ولكنْ عاجز عن الكلام. لم نعرف قط إذا كان خرسه لعلة جسدية أو نفسية، أو لمزيج من كلتيهما.

fb/mashro3pdf

كانت محاولات علاجه بيتية نوعًا ما. فعلى سبيل المثال، كانوا يضعون له كوبًا من الماء في موضع يراه ولا يبلغه، ثم يخبرونه بأنهم لن يناولوه الكوب حتى يقول: «ماء». غير أنهم لم يجنوا بذلك شيئًا، فحتى إذا اشتدت به آلام العطش، لم يكُن «سالباتيرًا» ينبس بكلمة واحدة.

ولكن ما نجحوا فيه حقًّا أنهم جعلوه يرسم ما يريد. بعد ذلك، بدأ يرسم باستخدام الألوان المائية. لم تُحفظ رسوم تلك الفترة (في الواقع، عندما بدأ يرسم على القماش الضخم في العشرين من عمره، أشعل النيران بنفسه في كافة أعماله السابقة). وفقًا لما كان يُحكى، فقد وُضِع فراشه أسفل التكعيبة خلال فترة تعافيه، حيث كان يرسم طيورًا وكلابًا وحشرات وبورتريهات مختلسة لبنات عمه المراهقات، وعماته الخمسينيات، بينما يتناولن عصير الليمون الطازج تحت ظلال الساعات الأخيرة من النهار.

fb/mashro3pdf

٤

وضعه خرسه والوقت الذي قضاه في التعافي على هامش الدور المقرر لرجال العائلة الأصحاء الصاعدين، كما أعفياه من آمال والده الإسباني الكبرى. كان جدي «رافاييل سالباتييرًا» وشقيقه «بابلو» قد وصلا إلى الأرجنتين وهما في العشرين من العمر، حيث عملا مزارعَين في «كونسِبسيون ديل أوروجواي»، ثم ناظرَي مزارع في «كولون»، ثم في وقت لاحق، بعد تجاوزهما الأربعين، استطاعا شراء بضع أراضٍ رملية لم يرغب فيها أحد بمنطقة «بارَّانكاليس». خلال العشاء، كان من عادة جدي أن يقول لأبنائه، في لفتة تغمر غرفة السفرة الضخمة، بل وتسعى لأن تتمدد كي تشمل أفدنة الأراضي المحيطة بها: «بدأتُ من الفقر المدقع ووصلت إلى هنا، أما أنتم فتبدأون من هنا، وسنرى إلى أين تصلون». أعفت

fb/mashro3pdf

ركلات الحصان الأرقش أبي من تلك الوصية المفعمة بالتحدي.

وإذا به قد صار الأخرس الصغير، أبله العائلة. كانوا يسمحون له بالبقاء وسط النساء، من دون مطالبته بإبداء مظاهر الرجولة التي كان يُطالب بها باقي الذكور، كإطلاق النيران باستخدام البندقية أو تقييد العجول أو امتطائها، فيتنزه برفقة بنات عمه اللائي كنَّ يصطحبنه جيئة وذهابًا؛ كان عندهن كالدمية، يلعبن معه لعبة الأستاذة والتلميذ ويعلمنه كل ما يعرفن. كنَّ يرغمنه على الكتابة حتى لا ينسى الحروف الهجائية، ويحملنه على التواصل معهن بكتابة كلمات فوق السبورة، ويسبحن معه في النهر. وفقًا لحكايات عمتي «دولوريس»، فقد كنَّ يرغمنه على أن يوليهن ظهره فيما تبدل الفتيات ثيابهن لخوض المياه، وسط أشجار الصفصاف المطلة على النهر. كان يصفق مرة ـ وهو أسلوبه في السؤال عما إذا أصبح بإمكانه النظر ـ فيجبنه بالنفي. ثم يعاود التصفيق بعد حين، فيعاودن الإجابة بالنفي، ويقلن له ألا يفكر حتى في أن يلتفت، إلى أن ترن الضحكات فيلتفت ليرى بنات عمه وقد خضن المياه.

لا بد وأن «سالباتييرًا» قد شقي بتلك الدعابة، إذ تظهر

fb/mashro3pdf

في عمله على نحو متكرر مراهقات يبدلن ثيابهن على النور الأخضر المنبعث من صفصاف الساحل، مخضبات بالشمس، خجلى من عري أجسادهن. لا شك أنه كان يرسمهن لحاجته إلى أن يرى أخيرًا تلك المشاهد التي جرت خلف ظهره ولم يستطع مشاهدتها، تلك الحميمية المشرقة، المحرمة على قربها البالغ.

fb/mashro3pdf

٥

لو كان «سالباتييرًا» قد سألني وأخي أن نهتم بعمله بعد وفاته، الأرجح أننا ما كنا سنفعل، أو ربما كنا سنهتم به بقدر أقل من الحماس. على العكس من ذلك، في اليوم السابق على وفاته بمستشفى «بارًانكاليس»، عندما سأله أخي «لويس» قائلًا:

ـ أبي، ماذا نفعل بالقماش؟

ابتسم محركًا ذراعه بتلك الإيماءة المطمئنة، كمن يلقي بشيء وراء ظهره، نحو الماضي، وكأنه يقول: «لا يهم، فقد قضيت وقتًا طيبًا». ثم وضع سبابته أسفل عينه وأشار بالكاد إلى أمي التي أوْلتنا ظهرها فيما تزيح الستائر. وهي إيماءة فهمتها كالآتي: «لتكُن عينكما على أمكما، اعتنيا بها»، أو شيء من هذا القبيل. لم نعاود سؤاله عن اللوحة. بدا أن رسمها هو ما كان يهمه، أما فيما عدا ذلك فلا. أيًا

fb/mashro3pdf

كان قرارنا، فسيكون حسنًا. توفي أبي فجر اليوم التالي، نائمًا في هدوء.

بعد زمن، حين قررتُ و«لويس» أن نهتم باللوحة، كان أول ما فعلناه هو الحديث إلى صديقه القديم، الدكتور «دابيلا»، طبيبنا في مرحلة الطفولة، وعلى الرغم من تقدمه في السن كان لا يزال محتفظًا ببعض العلاقات في الحكومة المحلية. أشار علينا بأن نتقدم بطلب إعانة مادية لإقامة متحف صغير. كتب عدة خطابات إلى الحكومة المحلية، مشددًا فيها على جودة العمل وأبعاده، والقيمة التي يحظى بها باعتباره مستندًا يوثق عادات الناس خلال حقبة من الزمن في إحدى المناطق. وهكذا يرجع إليه الفضل في اعتبار اللوحة «تراثًا ثقافيًا للمقاطعة»، غير أن المساعدة الضرورية لإقامة مؤسسة لم تصل قط. بل ولم يذهب أحد من المجلس المحلي للاطلاع على ماهية العمل. لم يكن لدينا سوى المسمى، سلسلة من المستندات الرسمية تحمل أختامًا وتوقيعات مزخرفة، بدلًا من أن تساعدنا استحالت كابوسًا بيروقراطيًا في نهاية المطاف.

مر زمن من دون أن نتمكن من عمل أي شيء. لم نذكر حتى المسألة لأمي، فلم نرغب في نبش ذلك الماضي (أو بالأحرى بسطه) على مرأى منها، إذ بدا لنا أنه قد

fb/mashro3pdf

يؤلمها. لم يكُن قرارًا تناقشت بشأنه مع أخي، بل جرى الأمر ببساطة هكذا. دائمًا ما جمعت بين أبي وأمي زمالة وثيقة، وبموته، تحملت أمي غيابه بصمت متكين جليٌّ لم نجرؤ على مقاطعته. توفيا بفارق عامين. لم تعرف أمي بنيتنا على إخراج اللوحة إلى النور ولم تتطرق إلى الموضوع قط. لم يتعدَّ ما ذكرته ذات مرة كون مالك السوبرماركت المقام حديثًا بجوار المخزن قد عرض عليها شراء قطعة الأرض إلا أنها قابلت عرضه بالرفض.

fb/mashro3pdf

٦

في يوم جنازة أمي، وبمجرد أن تخلصنا من العمات والخالات والتعازي، لذتُ و«لويس» بالفرار، ومررنا بالمخزن بسيارته. لم نكُن قد دخلنا إلى ذلك المكان منذ أعوام. رأينا قطعة الأرض الخلفية وقد احتلها السوبرماركت حاليًّا، بعد أن كان يشغلها البوص فيما مضى. كان لا يزال للمخزن الباب الجرار نفسه. سأل «لويس»:

ـ أندخل؟

ساورتنا الشكوك حينًا إلى أن صففنا السيارة وترجلنا منها. استرعى انتباهنا كون الباب بلا قفل. فتحناه ثم دلفنا إلى المكان كما لو كان معبدًا، وكأننا نسأل شبح «سالباتيرًا» الإذن بالدخول. هناك كانت لفائف القماش، معلقة بطول الدعامات بنظام. أحصينا عددها: كانت أكثر من ستين.

fb/mashro3pdf

حياة رجل كاملة. وقته بالكامل مطويٌّ، مخفيٌّ. سألت «لويس»:

ـ ماذا سنفعل؟

تدلت اللفائف فوق رأسينا. كانت مهمة ضخمة في انتظارنا.

ـ كم مترًا يبلغ طولها؟

قال «لويس»، ناظرًا إلى الأعلى، فيما يصلح النظارة:

ـ كيلومترات، يا أخي، عدة كيلومترات.

كنا نعرف بعضًا من أجزاء العمل، ولا سيما ما يعود منها إلى الفترة التي ساعدناه خلالها على إعداد القماش. ولكن مرات كثيرة، كان «سالباتييرًا» يرسم مقاطع من اللوحة، وبابه موصد، فتبقى مطوية لاحقًا من دون أن نتمكن من الاطلاع عليها. أما الآن فأمام أعيننا، وبلا قيود، مجموع أعمال «سالباتييرًا»، ألوانها، وأسرارها، وسنواتها. أعتقد أننا شعرنا بفضول عظيم، ولكن بحساب مدى ضخامة العمل، فقد شعرنا برهبة أيضًا. كنا رجلَيْن في الأربعينيات من العمر، تملَّكهما الشلل، ينفثان البخار وسط برودة المخزن، ويدا كل منهما داخل معطفه.

fb/mashro3pdf

وفجأة، سمعنا صوتًا أجوف:

ـ عمَّ تبحثان؟

ورأينا رجلًا قصير القامة كث الشعر، شاهرًا ماسورة من الحديد. أخبرناه من نكون. قدم نفسه إلينا بدوره، وقد أصبح أكثر هدوءًا بالفعل: كان «ألدو»، مساعدًا اتخذه «ساليناتيرًا» في أعوامه الأخيرة ليؤدي العمل الذي توقفنا عن القيام به عند ذهابنا إلى بوينوس آيرس. كنا قد قابلناه بالكاد بضع مرات. استغرق بعض الوقت حتى يتعرف علينا ونتعرف عليه. بدا لنا الآن رجلًا صلفًا، يكاد يكون التعامل معه مستحيلًا. حكى لنا أن أمي قد توقفت عن قضاء مستحقاته بعد وفاة «ساليناتيرًا»، إلا أنه واصل الذهاب إلى المخزن لاحتفاظه ببعض المتعلقات الخاصة به هناك، وبالمرة كان يتفحص تسرب المياه ويضع سم الفئران. أخبرنا أنه شاهد رجلين يحومان حول المخزن قبل أسابيع محاولَيْن فتح الباب عنوة، لهذا فقد كان على أهبة الاستعداد الآن، شاهرًا الماسورة. رأينا في أحد الأركان سريرًا قابلًا للطي وصندوقًا فوقه شمعة مطفأة. كما كان هناك قارب تجديف شبه متعفن ودراجة قديمة وبعض الصناديق والأكياس وقِطع كثيرة من أشياء محطمة أو مفككة.

fb/mashro3pdf

سألناه عن آخر ما رسم «سالباتييرًا». أطلعنا على اللفافة التي رسمها في عامه الأخير. كانت قريبة من الأرض، في مستوانا. فض رباطها ومن ثَمَّ أخذنا نبسطها. رأينا الطرف الذي رسمه «سالباتييرًا» قبل وفاته بخمسة عشر يومًا. كانت الأمتار الأخيرة من القماش مغطاة بالكامل بلون المياه الساكنة، شفافة لحظات، وأكثر إبهامًا لحظات أخرى، كصمت مغمور تسبح خلاله سمكة وحيدة في بعض الأحيان وتتخلله بعض الدوائر.

تبادلت و«لويس» النظرات. أعتقد أنها راقت لنا. كانت تبث الطمأنينة في النفوس. قال «ألدو» فيما يشير إلى سمكة وبضع دوائر غير مكتملة:

ـ اللوحة لم تكتمل.

نفدت قواه بعد أن رسم هذا الجزء ولم يرغب في الاستمرار.

كان هذا بلا أهمية، فمن المفهوم أنه، بطريقة أو بأخرى، انتهى من اللوحة حيث أراد. وكأنه بعد ذلك، قد قرر ببساطة أن يموت.

كنت قد تساءلت آلاف المرات كيف يكون طرف القماش، ذلك القماش الذي بدا لي كمَعين لا ينضب، مهما كنت

fb/mashro3pdf

مدركًا لكونه سينتهي ذات يوم، كما سينتهي أبي أيضًا، الذي كان فانيًا وإن لم أرغب في التصديق بذلك. وهناك كانت الإجابة. بكل طبيعية، هناك كانت الخاتمة.

fb/mashro3pdf

٧

عند بلوغه الرابعة عشرة من العمر، اشتدت عزلة «سالباتييرًا»، وقد هجرته بنات عمه اللائي ضجرن منه. فتظهره إحدى الصور الجماعية التي تعود إلى تلك الحقبة ممسكًا بقبعته، منزعجًا، يكاد يشيح بوجهه عن العائلة، تبدو عليه نظرة مُهر نافر خلف ذلك الأنف البارز الذي ورثناه أنا و«لويس» عنه. كانت تسمح له أمه بزيارة رسام ألماني أناركي يُدعى «هيربرت هولت»، عاش زمنًا في «بارَّانكاليس» وكان صديقًا وتلميذًا لـ«برنالدو دي كيروس». علَّم «هولت» أبي تقنيات الرسم بالزيت.

قال لنا «سالباتييرًا» تلك الأشياء بنفسه، بذلك المزيج من الإيماءات والإشارات الذي كان يحكي لنا به قصصًا في بعض الأحيان. كان يذهب إلى بيت «هولت» مرتين أسبوعيًّا بالدراجة (لم يعد لركوب الخيل لزمن طويل).

fb/mashro3pdf

كان يسير بحذاء النهر عبر الطريق العتيقة، حيث تقع الجادة الساحلية في الوقت الراهن، مارًّا وسط أجمة المدخل الجنوبي للبلدة، بين أشجار المُران والصفصاف والحور التي تتألف منها تلك الأنفاق الخضراء البادية في عمله. كان يصل إلى بيت «هولت» في التاسعة صباحًا، فيسمح له العجوز بأن يرسم إلى جواره، موجهًا له بالكاد بعض الإرشادات. شيئًا فشيئًا علمه استخدام المنظور، ومزج الألوان، ودراسة النِّسَب، وأهم شيء على الإطلاق، الرسم كل يوم. أحيانًا كانا يرسمان بورتريهات لمشردين متقدمين في السن كان «هولت» يحملهم على الوقوف أمامهما مقابل الكعك والنبيذ.

إلا أن «هولت» رحل، عاد إلى ألمانيا بعد انقلاب «أوريبورو». في رأي أخي أن دوافع رحيله لم تكن سياسية، بل إنه حين رأى تفوق تلميذه عليه بعد وقت بالغ القِصر، اتخذ العجوز قراره بالرحيل بحثًا عن آفاق جديدة، بعيدًا عن مثل تلك الإهانة. ما زالت له لوحتان رديئتان إلى حد كبير في نادي «بارَّانكاليس» الاجتماعي حتى يومنا هذا، سعى فيهما لتصوير ضفاف نهر أوروجواي، ولكنهما أشبه ببرودة نهر «الدانوب» الذي يمرُّ بمسقط رأسه.

في قماشه، يذكر «سالباتيرًا» معلمه «هولت» في مناسبتين

fb/mashro3pdf

أو ثلاث. في لحظة، يرسمه كمايسترو يقود المنظر رافعًا ريشته عاليًا كالعصا، مهيمنًا. وفي لحظة أخرى يبدو جالسًا، سعيدًا، يأكل بطيخة صفراء ضخمة، تحت سماء صفراء كالحريق. حكى لنا «سالباتييرًا» أنهما قد اختلفا ذات يوم لأنه رسم بطيخة صفراء في حين قال له «هولت» إنه ينبغي رسم الأشياء بلونها الحقيقي. ما دام البطيخ ورديًا بلون الشفق، يجب رسمه ورديًا بلون الشفق. حاول أبي أن يشرح له، بإيماءاته المنفعلة، أن البطيخ الأصفر له وجود. ظن «هولت» أنه يسخر منه فطرده. عاد «سالباتييرًا» في اليوم التالي حاملًا بطيخة مستديرة كهدية. في وقت لاحق، شقها «هولت» نصفين بسكين القلم الخاص به، ولدهشة الألماني، انفتحت البطيخة عن شقين صفراوين.

خلال تلك الأعوام التي استغرقتها فترة التدريب مع «هولت»، تجنب «سالباتييرًا» بنات عمه وإخوته بقدر الإمكان، فكان يتنزه سيرًا على الأقدام فوق الجبل الساحلي. هكذا تعرف على الصيادين الشيوخ، أصحاب قوارب التجديف، الذين كانوا يقيمون أكواخًا على ضفاف النهر ويقتاتون على ما يصطادون بالشص والشباك. شيوخ كانوا يعلقون ممتلكاتهم القليلة على فروع أشجار الخروب، خشية أن يجرفها الفيضان. من الممكن رؤيتهم

fb/mashro3pdf

على القماش بين كوكبات من الأسماك المتوحشة كعادة أسماك النهر، فتُرى أسماك القراميط بمختلف سلالاتها: «سوروبي» ضخمة مرقطة ذات شوارب طويلة، و«باجري» مُرَّة بلون الصفراء، «باتي» ذات ملامح شرقية، و«ماندوبي» ذات منقار بط، و«أرمادو تشانتشو»، التي تُعد بمثابة بارجة الأسماك، تغطي جانبيها الأشواك. هكذا يرسم «ساليناتيرًا» صيادي طفولته، كقديسين بثياب رثة، شُفعاء الأسماك السابحة في الهواء بين فروع الأشجار، بين صفائح وأوانٍ وأكياس ومغارف معلقة على الأشجار حتى لا يجرفها الفيضان. وكأن الكل يسبح في الهواء بقدر ما يسبح في المياه: الرجال والأسماك والأشياء.

يُمكن تَفهُّم عدم حبه للذهاب مع بنات عمه وإخوته إلى حفلات الرقص الاجتماعية في البلدة، كما كان يضطر للذهاب عنوة في بعض الأحيان. الأرجح أن خرسه كان يحول بينه وبين المشاركة. فضلًا عن عدم حبه للرسميات. منذ عرفته كان يرتدي شيئين: إما بدلة ميكانيكي ملطخة بالألوان للرسم، أو معطفًا رماديًا للذهاب إلى البريد، لم يعاود استخدامه منذ تقاعده.

أعتقد أنه أخذ عن «هولت» كذلك شيئًا من الميل إلى الحرية، شيئًا من الأناركية الحياتية أو العزلة السعيدة،

fb/mashro3pdf

مدفوعًا بالتقليد أكثر من كونه متأثرًا بعقيدة الألماني العجوز. أخذ عنه تبسيطه للحياة إلى الحد الأدنى من الأشياء التي تسمح له بالاستمرار في عمل ما يحب، بلا مضايقات.

عند رحيل «هولت»، ترك لأبي كمية لا بأس بها من الطلاء ولفافة طويلة من القماش فاضت عن حاجته. كان «هولت» يقص قِطعًا بنفسه من تلك اللفافة ويشدها على إطارات مستطيلة بغرض الرسم عليها. إلا أن «سالباتيرًا»، عندما تلقى اللفافة كاملة، قرر أن يرسم عليها، من أولها إلى آخرها، لوحة ممتدة موضوعها النهر، من دون أن يقصها. كانت تلك هي اللفافة الأولى. وكان في العشرين من عمره حين شرع في رسمها.

fb/mashro3pdf

٨

كان أول ما فعلنا قبل رحيلنا أن دفعنا إلى «ألدو» بعض النقود حتى يعتني بالقماش ويحافظ على المخزن كما فعل حتى ذلك الوقت. بعد فترة قصيرة، استطعنا ترك مشاغلنا في بوينوس آيرس لبضعة أيام والعودة إلى «بارَّانكاليس». لم تواجه «لويس» أي مشاكل في الهرب من عمله في مكتب كاتب العدل، أما أنا، فمُطَلَّق ويعيش ابني الوحيد في برشلونة، فكل ما كان يتعين عليَّ فعله أن أغلق الشركة العقارية، التي كانت متوقفة تقريبًا على كل حال، لبضعة أيام.

نزلنا بآخر بيت امتلكه أبواي، والذي كان لا يزال معروضًا للبيع. كان قريبًا من النهر، على بعد خمسة مربعات سكنية من المخزن. أمضينا تلك الأيام في رفع اللفائف وإنزالها بمعاونة «ألدو»، وباستخدام نظام مؤلف من بكرات رفع

fb/mashro3pdf

إلى جانب رافعة محركات حصل عليها «سالباتييرًا» من ورشة تصليح سيارات قديمة. وفقًا لحساباتنا، كانت كل لفافة تزن ما يقرب من مائة كيلو. قال «لويس» معلقًا إننا قد تقدمنا في السن، وضحكنا لأن مجرد التشمير عن سواعدنا كما في الماضي، للقيام بنشاط بدني، قد حسَّن من حالتنا المزاجية.

بمجرد إنزال اللفافة على الأرض، كنا نبسطها ثم يلتقط «لويس» صورًا فوتوغرافية لأجزاء منها. كانت فكرته تتمثل في إرسال الصور مرفقة بخطاب بغرض الإصرار على طلب إعانة مادية من المقاطعة، أو دعم من أحد المتاحف أو إحدى المؤسسات المهتمة بتحمل تكاليف مشروع معرض فني، في حالة لم نتلقَّ ردًّا من المقاطعة.

كان عرض القماش كاملًا في مكان واحد مستحيلًا. فكَّرنا أنه ربما أمكن عرضه على أجزاء. فقد سبق عرض جزءين متتاليين في بوينوس آيرس خلال الستينيات، لوقت قصير جدًّا، إلا أن «سالباتييرًا» لم يرغب في الحضور. كان لديه شعور دائم بأنه من كوكب آخر، تشخيصي بين لاتشخيصيين، ابن أقاليم بين أبناء مدينة بوينوس آيرس، فاعل بين المنظرين. فضلًا عن أنه كان زمن فن التجهيز والحدث، جماليات بعيدة كل البعد عن

fb/mashro3pdf

«سالباتييرًا». وفي مناسبة أخرى، حمل صديقه دكتور «دابيلا» جزءًا من اللوحة إلى بينالي فني في «بارانا»، بعد أن اتفق مع أبي على اقتسام قيمة الجائزة في حالة فوز عمله. وقد فاز. حضرنا جميعًا مراسم تسليم الجائزة. أحس «سالباتييرًا» بالضيق الشديد ولم يعاود إقامة معارض فنية قط. لم يكن مهتمًا بها، بل كانت تعترض عمله اليومي. لم يكن في حاجة للاعتراف به كفنان، إذ لم يكن يعرف كيف يتعامل مع هذا الأمر الذي بدا له غريبًا عن مهمته.

أعتقد أنه كان يتصور قماشه باعتباره شيئًا شخصيًا أكثر مما ينبغي، كيوميات حميمية، أو سيرة ذاتية مصورة. ربما كان «سالباتييرًا»، بسبب خرسه، في حاجة لأن يروي ذاته لذاته. أن يحكي لنفسه عن تجربته في جدارية متواصلة. كان سعيدًا برسم حياته، لم يكن في حاجة لأن يظهرها. كان عيش الحياة عنده يعني رسمها.

كما أعتقد (لم أدرك هذا الأمر سوى الآن) أنه ربما كان يخجل قليلًا من ضخامة العمل المفرطة، ذلك الحجم المنافي للمقاييس، العملاق على نحو جروتسكي، فيكاد يكون أقرب إلى تراكم عادة سيئة أو هوس، منه إلى لوحة تامة.

fb/mashro3pdf

قررت و«لويس» أن إعداد كتيب يبين بعض أجزاء القماش مصحوبًا بشرح وبعض صور «سالباتيرًا» قد يكون أفضل من توزيع صور مرفقة بخطاب. كما قررنا إدراج صورة للمخزن حيث اللفائف المعلقة، حتى يمكن إدراك مدى ضخامة العمل والمشروع.

كان اختيار اللقطات المناسبة من أجزاء القماش المختلفة أمرًا بالغ الصعوبة، إذ كان «سالباتيرًا» يرسم بلا أُطُر جانبية، ويستطيع خلق استمرارية بين المشاهد. كان ذلك هو الهاجس المسيطر عليه. أراد أن يرصد في لوحته انسيابية النهر، انسيابية الأحلام، كيفية تحوُّل الأشياء إلى أحلام، بكل طبيعية، من دون أن يبدو التغيير سخيفًا، بل حتميًا، وكأنه عثر على ذلك التحول العنيف الذي يتوارى داخل كل الكائنات، كل الأشياء، كل المواقف.

ومن أمثلة ذلك، الجزء الذي يرجع تاريخه إلى فبراير ١٩٧٥، والذي يبدأ بحفل بين الأشجار، في حديقة حيث يرقص الأزواج ويضحكون، يبدو أن ثمَّة جلبة شديدة في الهواء، ثمَّة سكارى مطروحون أرضًا، رجل يجرُّ امرأة نحو الشجيرات، رجلان على وشك الاشتباك في شجار، هناك مخمور بالزي العسكري، وآخر جاثٍ

fb/mashro3pdf

على ركبتيه، يبدو عليه أنه يعاني من شيء مغروس في معدته، ثم رجل عسكري يهز امرأة من ذراعها بشدة، ثم المزيد من الرجال يتصارعون بين الأشجار، يتعاركون متعانقين بزيهم الرسمي، متلاحمين، بالحراب والسيوف، ناس يقتتلون في هرج ومرج عظيمَيْن، ناس مطروحون أرضًا، قتلى، وإذا باللوحة معركة نشبت في قلب الجبل. وتنجح اللوحة، إذ تنقلب من حفل إلى معركة على هذا النحو، في إقناع المرء بقبول التحوُّل وكأنه نتيجة منطقية وبديهية.

وبسبب تلك الاستمرارية التي تتسم بها اللوحة، كان من الصعب اختيار اللقطات المناسبة لتصويرها. لم يكن للقماش أطر، ولا حتى عند طرفَيْ كل لفافة، فكانت نهاية كل منها تلتئم وبداية اللفافة التالية على أكمل وجه. لو كان في مقدوره، لاحتفظ بها «ساليناتيرًا» مجتمعة في لفافة واحدة عملاقة، حتى وإن أصبح بذلك الحفاظ عليها أو نقلها مستحيلًا.

كانت كل لفافة تحمل التاريخ والرقم مدوَّنَيْن بوضوح على الجزء الخلفي من القماش. قبل رحيلنا بيوم، حين بدأت في إعداد قائمة باللفائف، لاحظت نقص إحداها. كان ثمَّة عام بالكامل مفقود: ١٩٦١. قفزت التواريخ

fb/mashro3pdf

المدوَّنة على الجزء الخلفي من القماش من ١٩٦٠ إلى ١٩٦٢. لم يتوقف «سالباتييرًا» عن الرسم يومًا واحدًا. لذا فمن المستحيل أن يكون قد توقف عن الرسم عامًا كاملًا. في الحال نظرنا إلى «ألدو» بريبة. أما هو فقال إنه لا يملك أدنى فكرة عن أين يمكن أن تكون اللفافة، وفي حال كان لها وجود من الأساس، فهي لم تكن هناك منذ زمن، لأن الترتيب المتبع في تعليق اللفائف لم يتبدل منذ وقت طويل. لو كانت قد سرقت منذ فترة قصيرة، لتركت فراغًا ملحوظًا. من جانبي صدقتُه، أما أخي فلا.

حاولنا استرجاع ذكريات ذلك العام. ماذا حدث عام ١٩٦١؟ لم نتذكر شيئًا على وجه التحديد. كنا نسكن بيتًا بالقرب من منتزه البلدية آنذاك. وكان عمري عشرة أعوام، أما «لويس» فخمسة عشر عامًا. كانت أختي «إستيلا» قد توفيت. وكان «سالباتييرًا» يعمل في مكتب البريد، بينما تُدرِّس أمي الإنجليزية... كما كانت الحال دومًا. إن لم يكن قد سرقها «ألدو»، فماذا جرى لتلك اللفافة؟ أين يمكن أن تكون؟ أتكون قرضتها الجرذان ولذا أخفاها «ألدو» أو تخلص منها؟ أيكون سرقها شخص آخر؟ أيكون «سالباتييرًا» قد أتلفها أو باعها أو أهداها بنفسه؟ كانت اللفائف الثلاث التي سبق عرضها

fb/mashro3pdf

في بوينوس آيرس و«بارانا» هناك، ولم تكن اللفافة المفقودة واحدة منها. بقينا حينًا نحاول حل المسألة، ثم اضطررنا للمضي قدمًا في العمل نظرًا لعودتنا إلى بوينوس آيرس في اليوم التالي.

fb/mashro3pdf

٩

كان «سالباتييرًّا» في الخامسة والعشرين من العمر ويعمل بالبريد حين تعرف على «إيلينا راميريس»، أمي. أما هي فكانت في الحادية والعشرين، وتعمل بمكتبة «أورتيس»، في «بارّانكاليس»، حيث كان «سالباتييرًّا» يذهب صباح أيام السبت للقراءة عن حياة الرسامين العظام والبحث عن كتب تضم صورًا ونقوشًا. ثمّة انتقال بطيء على القماش الذي يعود لتلك الفترة من المشاهد الليلية إلى وضح النهار. في بادئ الأمر تبدو مشاهد انتقالية ممتدة، مع بزوغ الفجر، حيث تُرى نساء سوداوات يغسلن ثيابًا على ضفة النهر (كان دكتور «دابيلا» يحكي أن «سالباتييرًّا» كان يعبر أحيانًا برفقة الصيادين إلى الضفة الأوروجوانية في ليالي الصيف، حيث تُحسن استقبالهم مجموعة من النساء العاملات بغسيل الثياب). رسم «سالباتييرًّا» تلك

fb/mashro3pdf

الساعة حين تنعكس صورة أولى النجوم فوق صفحة المياه ويبدأ كل شيء في الاختلاط وسط الظلال. في أحد أجزاء اللوحة، يشعل أحدهم عود ثقاب وبالكاد تُرى في العتمة امرأة باسمة، مثيرة، خلف النباتات.

ثم بدأت تطغى على لوحته المشاهد النهارية، ضواحي البلدة فجرًا وشوارع طويلة تصطف على جانبيها الأشجار، حيث يمر راكبو الدراجات أشباه نيام. تتزامن تلك المشاهد الانتقالية مع الفترة التي تعرَّف خلالها إلى أمي. ثمَّة عدد من البورتريهات لها: فتُرى جالسة إلى المكتب الخاص بأمينة المكتبة، بعيدًا في بادئ الأمر، في أقصى الجانب الآخر من القاعة الخالية، ثم أقرب، مشرقة دائمًا، مستغرقة في القراءة، فتاة ذات رموش بالغة الطول، لا ترفع بصرها أبعد من ذلك كثيرًا. كان من عادة أمي أن تقول عن أبي إنه خجول كالأرانب، يبقى في أقصى الجانب الآخر من القاعة، متصفحًا كتبه، بينما يسترق إليها نظرات مختلسة. وفقًا لقولها، كانت تلاحظ حين يرسمها، فتعجز عن القراءة، كما تحس بوخز في جسدها وبضيق شديد وبوعي مفرط لذاتها.

fb/mashro3pdf

١٠

في اللحظة الأخيرة، قبل عودتنا إلى بوينوس آيرس، استطعنا إحضار أحد موظفي البلدية للاطلاع على عمل «سالباتيرًا». كنا نرغب في معرفة ما إذا كانوا سيتخذون قرارهم بدعم مشروع إقامة متحف أخيرًا. في حال لم نحصل على المساعدة، كنا على استعداد لعمل شيء بالجهود الذاتية. كان دكتور «دابيلا» قد توفي وتوالت حكومتان منذ استطاع إعلان اللوحة «تراثًا ثقافيًا». أما الآن فكانت «بارَّانكاليس» تحت حكم حركة «أنداندو»، وهو حزب مؤلف من أحد الفروع «البيرونية» نجح في الفوز بمناقصات تنظيم الكرنفال، بالتحالف مع راديكاليين سابقين تقع الإعانات المادية المخصصة للتشجير تحت إشرافهم.

حضر السكرتير الخاص بمسؤول الأنشطة الثقافية،

fb/mashro3pdf

ولم يتوقف لحظة عن الرد على هاتفه المحمول. أطلعناه على بعض اللفائف. بسطناها له على الأرض. أخذت أشرح له، إلا أن هاتفه المحمول كان يرن فيتلقى المكالمة. كان يسير حتى باب المخزن فيما يتحدث بصوت مرتفع، بعبارات من قبيل: «قل للفِرق المشاركة في الكرنفال إن النقود جاهزة». كان يسير في دوائر، ملوحًا بيديه، يسب أحدهم على الطرف الآخر، يقترب، يبتعد، يقول: «ولكن يا أخي، هؤلاء لا يملكون حتى ثمن السولار».

في لحظة ما، وبينما يستمع إلى حديث أحدهم عبر الهاتف، بسط إحدى لفائف القماش أكثر قليلًا بطرف حذائه، كي يتطلع إليها. وكانت تلك لفتة الاهتمام الوحيدة التي بدرت عنه. ثم أخبرنا أنه ينبغي الحديث بهذا الشأن مع حاكم المقاطعة، وربما أمكن إرسال خطاب إلى الحكومة المحلية. وقال:

ـ مع ذلك، أنبهكم إلى عدم وجود نقود. الحصول على نقود أمر في غاية الصعوبة. ولكن على كل حال، تقدما بمشروع.

أخبرناه أننا كنا قد تقدمنا بمشروع بالفعل. من الواضح أنهم لم يكونوا على علم به.

قبل أن يستقل سيارته، سألنا عما إذا كنا على علم برغبة

fb/mashro3pdf

شخص يدعى «بالدوني»، مالك السوبرماركت المجاور ومسؤول الرعاية الاجتماعية، في شراء قطعة الأرض المقام عليها المخزن. تذكرت العرض الذي تلقته أمي. ألقى الرجل نظرة على المخزن ثم عرض علينا أن نبيع قطعة الأرض بلا مقدمات، وأن نحتفظ بالعمل في مكان آخر يمكنه مساعدتنا في العثور عليه، وبتلك النقود نقيم المتحف.

لم تبدُ الفكرة سيئة. ترك له «لويس» البطاقة الخاصة به. اتفقنا على الحديث بهذا الشأن ثم رحل. في اليوم التالي عدنا إلى بوينوس آيرس، ولم أتمكن من العودة إلى «بارَّانكاليس» لعدة شهور.

fb/mashro3pdf

١١

عُدت بحلول نهاية الشتاء، بعد أن نجحنا بالفعل في الحصول على دعم مؤسسة «أدريان رويل». كانت قد مرت عدة أشهر لم نتمكن خلالها سوى من الاتصال بالسيد «بالدوني»، الذي عرض علينا مبلغًا بخسًا إلى حد سخيف مقابل قطعة الأرض. ولأن «لويس» قابل عرضه بالرفض، هاتفه السكرتير الخاص بمسؤول الأنشطة الثقافية. لا شك أنه و«بالدوني» كانا على اتصال. عرضا علينا مكانًا بديلًا للاحتفاظ باللفائف، على بُعد نصف مربع سكني من النهر. منطقة عرضة لمياه الفيضانات. عبر له «لويس» عن شكره قائلًا إننا سنهتم بالمسألة بأنفسنا.

انتهيت من إغلاق أبواب الشركة العقارية. وفي تلك الأثناء، أعددنا الكتيبات وطبعناها. ثم بدأنا في توزيعها بصالات العرض والمؤسسات والشركات. أعد لنا

fb/mashro3pdf

مصمم الجرافيك نسخة رقمية أرسلها «لويس» عبر البريد الإلكتروني إلى عدة جهات أجنبية. لم يمر وقت طويل حتى تلقينا بعض الردود.

كنا قد فكرنا في طُرق مختلفة لعرض القماش، تتمثل إحداها في توصيل اللفائف بعضها ببعض لتكوِّن لفافة واحدة تمر من خلف زجاج ومن ثَمَّ تلتف حول بكرة أخرى. بيد أن تنفيذ تلك الفكرة يستلزم مكانًا هائل الحجم، فضلًا عن أنه، وفقًا لذلك النظام، سيبدأ القماش بالدوران في الاتجاه المعاكس بانتهاء عرض اللفافة، وكأن الزمن يعود إلى الخلف. ومن بين الطرق الأخرى، خطر لنا أن نعرض على الأقل بعض الأجزاء الطويلة، إن لم يكن مجموع القماش، في أحد الاستادات المغلقة، أو إحدى قاعات العرض المستديرة، مثل «القصر الزجاجي» في بوينوس آيرس. ومن بين الاحتمالات الأخرى فكرنا في نشر كتاب طويل، ذي قطع طولي، يضم صورًا قابلة للطي.

لم تكن البداية مشجعة إلى حد كبير. كان أول من أبدى اهتمامًا بعمل «ساليناتيرًا» بعض الأمريكان من موسوعة «جينيس» للأرقام القياسية. راسلهم «لويس» معتقدًا أنه ربما كان في إمكانهم تمويل معرض فني. إلا أن فكرة هؤلاء كانت تتمثل في بسط مجموع القماش فوق أسفلت

fb/mashro3pdf

إحدى الطرق المهجورة ثم تصويره من طائرة مروحية. قالوا إنه في حال صحت معلوماتنا فقد كنا نمتلك بين أيدينا اللوحة الأطول في العالم، وهو ما قد يُدرُّ علينا مكاسب ضخمة. بدا لنا أن تلك الفكرة ما كانت لتروق لـ«سالباتيرًا». فهو لم يرسم لوحته لمشاهدتها من طائرة مروحية كأعجوبة مفرطة الضخامة. أجبناهم بالنفي وانتظرنا عروضًا أخرى.

(طالعت في الطبعات الأخيرة من الموسوعة أن لوحة مقدسة من التبت، معروضة في بكين، صنعها أربعمائة راهب بوذي وتبلغ من الطول ٦١٨ مترًا، ما زالت تحتل المركز الأول من حيث الطول على مستوى العالم. في حين تبلغ لوحة «سالباتيرًا» أربعة كيلومترات طولًا ورسمها وحده).

بعد أن تلقينا بعض المكالمات من أشخاص فضوليين، وبعض العروض غير الكافية من صالات محلية عرضت علينا مساحة صغيرة، تلقينا من هولندا عرضًا قدمته مؤسسة «رويل». أبدوا اهتمامًا بالعمل نظرًا لأنهم كانوا بصدد إعداد مجموعة أعمال فنية من أمريكا اللاتينية. عرضوا علينا تصوير اللوحة فوتوغرافيًا في بادئ الأمر بغرض إنشاء أرشيف رقمي، ومن ثَمَّ التعريف بها في أوروبا،

fb/mashro3pdf

بحيث يمكن إبرام صفقة شراء لنقلها إلى متحف المؤسسة بأمستردام، في حال لفت العمل الأنظار. بدا لي ولأخي «لويس» عرضًا جديرًا بالاهتمام. كانوا على استعداد للعمل خطوة بخطوة، فضلًا عن أنهم عرضوا علينا مبلغًا لا بأس به من النقود.

كان من الضروري أن يبقى أحدنا في «بارَّانكاليس» للإشراف على نسخ اللوحة (المسح الضوئي، الرقمنة، إلخ). أخبرت «لويس» أنني على استعداد للذهاب، بل وأنني أفكر في السفر قبل ذلك ببضعة أيام. فسألني على الجانب الآخر من الهاتف بلهجة الأخ الأكبر:

ـ ولماذا؟

ـ سأبحث عن اللفافة المفقودة.

fb/mashro3pdf

١٢

وصلت الحافلة إلى محطة «بارَّانكاليس» ليلًا تقريبًا. استقللت سيارة أجرة إلى البيت، الذي كان بلا أنوار لا يزال. كانت لديَّ الشموع التي اشتريناها منذ شهور، ويرجع الفضل في وجود المياه إلى مكالمة هاتفية أجراها «لويس» مع صديق قديم له في البلدية تمكن من إعادة الخدمة. كانت تسري في حجرات البيت برودة رطبة لم تغادر المكان كلية.

في الليل نِمت نومًا متقطعًا، أرقتني خلاله الأشباح التي تسكن البيت. ثياب أمي وأشياء أخرى لها كانت لا تزال موضوعة في بعض الأكياس البلاستيكية بإحدى الحجرات. قضت حياتها في جمع الأغراض وكنزها. على عكس أمي، كان يمكن حزم الأغراض التي تركها أبي في حقيبة واحدة: ساعة، فرشاة حلاقة، مشط، فرشاة أسنان،

fb/mashro3pdf

سبعة قمصان... كانت تبدو وكأنها المتعلقات الشخصية الخاصة بسجين. ها هو ذا البرواز الذي يحمل صورة عرسهما، ما زال معلقًا على الحائط. بدا كلاهما مرتبكًا، في ريعان الشباب، في صورة بالأبيض والأسود من تلك التي كانت تلون يدويًا. تزوجا عام ١٩٤٠، بلا دعم كبير من عائلتيهما. لم تكن جدتي لأمي تريد زواج ابنتها من موظف بسيط في البريد، وفوق ذلك أخرس. كذلك جدي وجدتي لأبي لم يرغبا في زواج ابنهما من ابنة أرملة منقطعة عن العالم، مجهولة وسط مجتمع «بارَّانكاليس». غير أن قرب ميلاد أخي «لويس»، الذي أخذ يتكون في بطن أمي بالفعل، اضطرهم جميعًا للاحتفاظ بآرائهم لأنفسهم.

رسم «سالباتيرًا» على قماشه مراسم حفل الزواج ـ الذي أقيم في حديقة كنيسة صغيرة تعرضت للهدم منذ زمن ـ من منظور علوي، وكأن أحدهم يشاهد من برج الكنيسة. أفراد العائلتين جلوس على المقاعد، كل عائلة على أحد جانبي الممر الأوسط، في مواجهة الأخرى. عائلة أبي، ضخمة، شديدة، تشغل مساحة أكبر مما ينبغي، حيث تصل بين الأقارب أوردة حمراء غليظة كالجذور. أما عائلة أمي، فمتفرقة، أثيرية، تكاد تكون بعض الخالات شفافات، حيث أقارب تجمع بينهم صلات غير وثيقة تلقوا الدعوة

fb/mashro3pdf

في اللحظة الأخيرة، تصل بينهم خيوط هزيلة من الدم، تكاد تكون خفية. ويتلاقى كلٌّ من حبائك الأوردة داخل والديَّ، مرورًا عبر جدتَيَّ. يُلقي القس موعظته مشيرًا إلى بطن أمي حيث تتشابك الدماء. ومن ذراع أبي اليمنى يتدلى وريد، يبتعد وحيدًا حتى النهر.

fb/mashro3pdf

١٣

طالعت الكثير من هذه الأشياء بتأنٍّ خلال الأيام التالية، والتي قضيتها في المخزن، قبل وصول الهولنديين التابعين لمؤسسة «رويل». عند حضور «ألدو»، كان يساعدني على إنزال بضع لفائف، أبسُطها لاحقًا على الأرض ثم أمرُّ عليها ببطء، أطالع كل تفصيلة. أحيانًا كنت أشعر بأنني أتعرف على أبي لأول مرة. كانت ثمَّة بورتريهات لأشخاص لم تسبق لي رؤيتهم قط، رجال بوجوه خضراء يحتسون الشراب في إحدى الحانات، عجائز فارقتهن الحياة منذ زمن، في ثياب سوداء، جالسات بصرامة، رجال «جاوتشو» قدامى، بالكاد أحياء في لفتاتهم، يتطلعون من خلفية تصور إحدى أمسيات وشم الماشية، أو يعملون في مجازر ضخمة، وقوف على أقدامهم، أذرعتهم دامية، بجوار بقرة جوفها مفتوح عن آخره إلى السماء. في أحيان

fb/mashro3pdf

أخرى، كانت اللوحة تذكرني بلحظات من حياتنا: كلاب عاشت في البيت كنت قد نسيتها، أو حريق عام ١٩٥٨ الذي بلغ جنوبيَّ «بارَّانكاليس». رسم «سالباتييرَّا»، بطول ما يقرب من تسعة أمتار من القماش، المراعي مترامية الأطراف وهي تحترق، سحب الدخان الملتوية، الوهج العجيب، المقدس، كما رأيناه ذلك المساء، والأسرة كاملة تقف على حافة الطريق.

كنت أتطلع إلى كل هذا متسائلًا عن أشياء كثيرة في آنٍ. ما هذا النسيج المتشابك من الحيوات، والناس، والحيوانات، والأيام، والليالي، والكوارث؟ ماذا كان يعني؟ كيف كانت حياة أبي؟ لماذا كان في حاجة لتأدية هذا العمل الهائل؟ ماذا جرى لنا أنا و«لويس» لينتهي بنا المطاف ونحن نعيش حياة بالغة الرمادية و«البوينوس آيرسية»، وكأن «سالباتييرَّا» قد امتص كافة الألوان المتاحة؟ كنا نبدو أكثر حياة على ضوء اللوحة، في بعض البورتريهات التي رسمها لنا وأنا في العاشرة من العمر نتناول كمثرى خضراء، عما نحن عليه الآن في حياة المكاتب والعقود. كان وكأن اللوحة قد ابتلعتنا، أنا و«لويس» و«إستيلا» وأمي. كل ذلك الوقت المشرق الذي عشناه في الأقاليم قد امتصته قماشته. كان ثمَّة شيء خارق

fb/mashro3pdf

في لوحة «سالباتيرًا»، أكثر مما ينبغي. دائمًا ما صعب عليَّ الشروع في مهام جديدة، بل وحتى أبسط الأشياء في بعض الأحيان، كالقيام من فراشي صباحًا. كنت أظن أنه ينبغي عليَّ أن أفعل كل شيء على طريقة أبي العملاقة، أو ألا أفعل شيئًا. أعترف بأنني مرات كثيرة آثرت ألا أفعل شيئًا، وهو ما حدا بي بدوره إلى الشعور بأنني لا أحد.

fb/mashro3pdf

١٤

طلبت من «ألدو» أن يعيرني الدراجة العتيقة التي رأيتها في المخزن، ثم قمت بتشحيمها وتبديل إطاريها وتعبئتهما بالهواء. لم أكن قد ركبت دراجة منذ أحد أيام السبت البعيدة، في منتصف الثمانينيات، عندما كنت أذهب مع ابني إلى غابات «باليرمو».

قطعت «بارِّانكاليس» على غير هدى، محركًا دواستَي الدراجة ببطء، فيما أقارن بين ذكرى البلدة حيث تربيت والمدينة التي استحالت إليها الآن. لم أكن أعرف من أين أبدأ بحثي عن اللفافة المفقودة.

مقارنة بمجموع العمل، كان الجزء المفقود يشكل نسبة لا تُذكر، إلا أنني كنت أرغب في العثور عليه، لأن تلك الفجوة كانت تُشعرني بالضيق، تلك القفزة التي تتخلل عملًا بهذا القدر من الاستمرارية. لو كانت هناك أربع أو

fb/mashro3pdf

خمس لفائف مفقودة لما اهتممت بالبحث عنها، ولكن لأنها لفافة واحدة، فقد كانت اللوحة أقرب إلى بلوغ تلك الانسيابية المطلقة، التي سعى إليها «سالباتييرًا»، من ألا أبذل في سبيل ذلك جهدًا. كانت اللوحة خالية من أي شقوق رأسية، بل كانت عبارة عن استمرارية واحدة، نهر واحد.

جبت أنحاء وسط المدينة لبعض الوقت. في الحادية عشرة، اكتشفت أنني على مقربة من حي الكاتدرائية، فطرقت باب قريبات تربطنا بهن صلة بعيدة، بنات عم «سالباتييرًا»، كنَّ قد حضرن جنازة أمي. لم يعدن البنات اللائي يتجردن من ثيابهن على ضفاف اللوحة، أصبحن الآن يشبهن الإسبانيات الوقورات المتَّشحات بثياب الحداد ممن سبقنهن إلى الوجود. خطر لي أنه ربما استطعن أن يخبرنني بشيء. لم أكن أعرف أي شيء.

استقبلنني بدون إبداء الكثير من البهجة. قلن لي مرة تلو الأخرى فيما يتفرسن في وجهي: «صورة حية لأبيك». لم أتبين إذا كان ذلك شيئًا حسنًا أم سيئًا. لكونه صادرًا عنهن، فقد بدا لي بالأحرى شيئًا سيئًا. حاولت أن أصلح من هندامي قليلًا. كنت مضطربًا ورثَّ الهيئة بسبب الجولة التي قمت بها بالدراجة. دُعيت إلى الجلوس

fb/mashro3pdf

في صالة تفوح منها رائحة النفتالين. حاولت ألا أطيل اللف والدوران. سألتهن عما إذا كان «ساليناتيرًا» قد باع إحدى لفائف اللوحة أو أهداها. لم يكنَّ على علم بشيء. قالت لي إحداهن فيما تنظر إلى الأخرى نظرة تواطؤ:

ـ ولكن، ابحث في ذلك المخزن، فهناك يمكنك العثور على أي شيء.

ـ لماذا؟

ـ آآآ... لأنه كان محبًّا لجمع الأشياء دائمًا.

لم يزدن على ذلك كثيرًا. لاحت في صوتهن نبرة رقابة عزوتها إلى ذلك الرفض الكلي الذي أبدته العائلة نحو أبي دائمًا. اضطررت لأن أبقى بعض الوقت أتحدث معهن عن أمراض ووصفات علاج ليس لها من الأساس العلمي سوى القليل قبل أن أتمكن من الذهاب. أردن دعوتي في اليوم التالي لتناول الشاي، ولكن حين أخبرتهن بأن لديَّ ارتباطًا، لم يبدين من الإصرار الكثير.

كما طرقت باب بيت الراحل دكتور «دابيلا». أكدت لي أرملته، بارتياب وغلظة، من دون أن تدعوني إلى الدخول، أن زوجها لم يحتفظ بأي من لوحات «ساليناتيرًا» قط.

fb/mashro3pdf

قلت لها:

ـ لفافة، لفافة ضخمة من القماش.

قالت والباب موارب:

ـ كلَّا يا عزيزي، لا أعرف أي شيء بهذا الشأن.

عند عودتي إلى المخزن، عملت بكلام قريباتي وفتشت في الكراكيب. أسفل قارب التجديف وجدت قاربي الأزرق السماوي القديم. وكأنني قد رأيت شبحًا. في الصيف، كان أبي يأخذنا إلى النهر على ظهر عربة الخيل تجرها «تيسا»، فرس بيضاء كنا نتركها ترعى في الأراضي البور بالمربع. عند وصولنا، كان يطلق العنان للفرس ويتجول بها على ضفة النهر، فوق الرمال حيث كنا نذهب للعب، لإبعاد أسماك الشفنين الشوكية السامة. بعد ذلك كنا نخوض مياه النهر، وما كانوا يسمحون لنا بالابتعاد عن الضفة لوجود آبار وبِرك غادرة فيه. كان قاربي بالكاد يتحملني وحدي. كنا نربطه بحبل طويل، ومن ثَمَّ أترك التيار يسحبني في اتجاه مجرى النهر. كان «سالباتيرًا» يلوح لي بيده «باي باي»، ونلعب لعبة السفر، ثم يُعيدني إلى مكاني جاذبًا الحبل، مرة تلو الأخرى. ذات يوم توقفنا عن الذهاب. غرقت أختي «إستيلا» وهي تسبح مع صديقات لها على مقربة من الجسر العتيق، فلم ترغب أمي في عودتنا إلى النهر.

fb/mashro3pdf

كما وجدت خلال تنقيبي في الكراكيب المقاعد المصنوعة من جذوع الأشجار المقطوعة التي كان يرصها «سالباتيرًا» عند زيارة أصدقائه له في المخزن، حيث كانوا يحتسون الشراب إلى وقت متأخر. أحيانًا كانت أمي ترسلنا كي نتفقده، فيسمح لنا «سالباتيرًا» بالبقاء هناك حينًا قبل أن يعيدنا. لا بد أنني كنت في العاشرة من العمر. كنت أنظر إلى أولئك الرجال بإعجاب مشوب بالخوف. كانت تلك المجموعة تحضر بصحبة «ماريو خوردان»، صديق لأبي ومالك صندل شحن، كان أبي يعيره ركنًا من أركان المخزن لحفظ البضائع. كان «ماريو خوردان» ذا لحية مدببة، يحمل مسدسًا من طراز «آيفر جونسون» دائمًا، ويسقط أرضًا حاملًا الأكورديون أحيانًا. كانوا يلتقون ستة أو سبعة رجال. بعضهم كان كثير الصمت، وعلى درجة من صعوبة المراس، مثل «باسكو سالاسار»، أو رجل أسود يدعى «فيرمين إيبانيس»، إلا أن الكحول كان يُدخل البهجة إلى نفوسهم شيئًا فشيئًا. كان أحدهم يسأل «سالباتيرًا» أن يبسط اللوحة قليلًا، فيتركهم يتوسلون إليه أولًا ثم يضع طرف أحد الأقمشة على بكرة تدور حرةً حول قائم، وهكذا تمر اللوحة ببطء، كنسيج متحرك. حينئذ كان «ماريو خوردان» يعزف على آلة الأكورديون فيما تمر الصور، كعازفي البيانو في السينما الصامتة. كانوا جميعًا

fb/mashro3pdf

يسكرون، يضحكون إذ يتعرفون على أنفسهم في اللوحة، أو يتطلعون في دهشة، بعيون من زجاج، وقد خدرهم تيار الموسيقى البطيء، إلى مشاهد كالأحلام رسمها أبي: جُزُر، قطعان خيل تعبر النهر، قنوات، فرسان نُحرت أعناقهم، مستنقعات تسكنها حشرات عملاقة، معارك.

ذات ليلة دبَّ خلاف، فشق «فيرمين إيبانييس» القماش بطعنة سكين مهددًا «سالباتييرًا». لحسن الحظ، تدخل «خوردان» ليهدئ النفوس، واستمرت الجلسة حينًا بلا مشاكل حتى ذهبوا عن المكان. أذكر أنني، ولعدة ليالٍ، كنت أستيقظ من نومي مذعورًا، مقتنعًا بأن «إيبانييس» قابع في عتمة حجرتنا، واقف هكذا، ساكن كما رأيته، شاهرًا سكينه.

fb/mashro3pdf

١٥

كان المكان فيما سبق واحدة من حظائر جزِّ الأصواف القديمة الخاصة بجدي. ولكنْ نظرًا لعدم رواج تجارة الأصواف كثيرًا في المنطقة، وازدهار تربية الأبقار ومزارع الدواجن وزراعة الموالح على المدى البعيد، ظل المخزن مهجورًا إلى أن شغله أبي في الأربعينيات.

كان المخزن يقع في جنوب «بارَّانكاليس»، على مقربة من طريق النهر، في مكان مرتفع لا تبلغه مياه الفيضان. وكان «سالباتيرًا» يفتح أبوابه في السادسة صباحًا، فيرسم حتى العاشرة، ثم يغلقه قاصدًا عمله في البريد إلى أن يعاود فتحه مرة أخرى في الخامسة مساءً. عند خروجي من المدرسة، كنت أذهب إلى المخزن أحيانًا، حبًّا مني في مساعدته على تحضير القماش.

كان تحضيره يستغرق يومين أو ثلاثة، على حسب الطقس.

fb/mashro3pdf

فكان يرسلني لجمع سيقان البوص أولًا من إحدى الأراضي البور الواقعة خلف المخزن، والتي يشغلها السوبرماركت اليوم. كان المكان يخيفني بسبب العتمة التي تكتنفه، وحفيف الأوراق اليابسة إذ يتخللها النسيم، فيُسمع له وقع الخطوات الخفية وهمسات الموتى. كانت سيقان البوص تستخدم لخياطة إطارَي القماش، السفلي والعلوي، ومن ثَمَّ ربطهما بعودين قديمين من عربات الخيل. فكنا نصنع مقاطع بطول خمسة أمتار، ثمَّ تُنزع الأخشاب ببطء بعضها عن بعض، وما إن يصبح القماش مشدودًا كغشاء الطبل، حتى نغطيه بطبقتين من الغراء. وبعد ذلك، فيما يجف شيئًا فشيئًا، نكسوه بعدة طبقات من معجون مكون من الجبس والجير نصفيه مسبقًا بقميص بالٍ. وهنا يأتي أحبُّ الأجزاء إلى نفسي: أن أشاهد كيف ينفخ العجين المتكتل القميص وكيف يخرج السائل المُصفًّى عبر الجزء السفلي. ورائحته، التي لم أعاود تنشقها سوى في بعض متاجر المعدات بالعاصمة. كانت لدينا دائمًا قطعتان أو ثلاث قِطَع من القماش في مختلف مراحل التحضير. فكنا نبسطها تحت أشعة الشمس ونتفحصها مقابل الضوء للكشف عن أجزاء غير مغطاة بالتساوي، ثم نكسوها بالعجين من جديد. وبمجرد الانتهاء من تحضيرها، كان «سالباتييًّا» يوصل

مقاطع القماش بماكينة خياطة تعمل بالدواسات، إلى أن يصنع لفافة واحدة من القماش. دائمًا ما كان يريد توفير لفافة واحدة على الأقل من القماش الأبيض على سبيل الاحتياط، حتى يتسنى له العمل في هدوء.

كان يمكن إعداد القماش باستخدام نسيج أبيض يُشترى لأغراض الرسم على وجه التحديد، وذلك في أحسن الأحوال، أما في أسوئها، عندما كانت النقود بالكاد تكفي لتغطية نفقات البيت، فباستخدام جوالات مفتوحة من الخيش، كنا نقصد مخازن الحبوب لطلبها بعد الانتهاء من إفراغ حمولة الحبوب. وبين تلك الحال ونقيضها، كان «ساليناتيرًا» يتمكن من إعداد القماش باستخدام أي شيء: أنسجة قديمة، أغطية أرائك، ملاءات، تندات.

ولفترة من الزمن، في أوائل السبعينيات، كان أحد أصدقاء «لويس» يعمل حمَّالًا في المحطة، ويحصل له على نسيج أخضر فائق الجودة، كان أبي سعيدًا به للغاية. كان ذلك النسيج يستخدم في ربط الشحنات، ومعروفًا بقدرته على التحمل. في المقابل كان «ساليناتيرًا» يدفع بسخاء، فجنى صديق «لويس» مبلغًا لا بأس به من النقود. بحسب قوله، كانوا يعطونه النسيج في أحد مستودعات السكك الحديد.

ذات صباح، جاء إلى المخزن رجل هائل الجرم شاهرًا

fb/mashro3pdf

هراوة، وسأل عن موضع الأنسجة التي يربط بها شاحنته. أخذ يدق الجدران المصنوعة من الصفيح في تحدٍّ، محدثًا جلبة عارمة، قائلًا إنهم قد أخبروه بأن النسيج الذي سُرق منه قد انتهى به المطاف هناك. أخذ «سالباتييرًا» ـ الذي رسم سائق الشاحنة لاحقًا على هيئة «سايكلوب» أكرش ـ يشير إليه بأن يهدأ، إلا أن الرجل كان يريد تفسيرًا لما حدث، في حين كان أبي عاجزًا عن الكلام، مما زاد من حنقه، والأدهى أنه هدد بتهشيم رأس أبي حين وقع بصره على النسيج في طور القطع والشد. اضطر «لويس» لأن يوضح له أن أبي أخرس. ربما لأن «سالباتييرًا» قد أظهر براءته بالحفاظ على هدوئه، لم يتعدَّ عليه سائق الشاحنة بالضرب. في النهاية نجحا في إقناعه بالجلوس وشرحا له الموقف. طلب سائق الشاحنة عنوان الفتى ليبحث عنه، فاضطر «سالباتييرًا» للكذب قائلًا، من خلال «لويس»، إنهما لا يعرفان أين يعيش. قال الرجل إنه، على كل حال، سيذهب للبحث عنه في المحطة، فهناك سرقت منه الأنسجة ليلًا بعد إفراغ حمولة المقطورة. أرسلني أبي إلى البيت في طلب نقود كي يدفع له مقابل النسيج. غادر سائق الشاحنة المكان وهو يعد الأوراق النقدية.

أرسل «سالباتييرًا» في طلب الفتى. وعندما حضر راكبًا

fb/mashro3pdf

دراجته، جذبه من ذراعه وأرغمه على السير معه في الشارع. ثم أشار إليَّ بأن أرافقهما. أخذ الفتى ينظر إليَّ، مذعورًا، ليرى ما إذا كنت سأشرح له تصرفات أبي. سألني:

ـ إلى أين يأخذني؟

أشار «سالباتيـرًا» جاذبًا حافة قبعة خفية. فقلت للفتى:

ـ إلى الشرطة.

ـ لماذا؟

تظاهر «سالباتيرًا» بأنه ينتشل شيئًا من جيبه. لم يكن ثمَّة حاجة للترجمة. فقال الفتى يائسًا:

ـ لن أعود للسرقة، أقسم لك يا سيدي.

توقفنا عند الناصية. تفرس في عينيه، أشار إلى الفتى، ثم وضع يده على كتفه كأنه يحمل شيئًا، ثم أشار إلى نفسه.

ـ يقول لك أن تعمل لحسابه.

أجاب الفتى بالقبول. عهد إليه «سالباتيرًا» بقضاء المشاوير لبضعة أسابيع، ثم استطاع أن يجد له عملًا بالبريد حيث ظل يعمل خمسة عشر عامًا قبل أن يلتحق بالبلدية. في الوقت الراهن يشغل هناك منصبًا مهمًّا حيث يؤدي عملًا لا يختلف كثيرًا عما كان يفعل بالنسيج. وذلك هو صديق

fb/mashro3pdf

«لويس» الذي استطاع إعادة خدمة المياه إلى البيت خلال وجودنا في «بارَّانكاليس» لمدة أسبوع.

لا بد أن مئات الأمتار من عمل «سالباتييرَّا» مرسومة على نسيج مسروق من الشاحنات التي كانت تفرغ البضائع بمحطة القطار في أوائل السبعينيات.

fb/mashro3pdf

١٦

وصل الهولنديان بعد شروعي في البحث عن اللفافة المفقودة ببضعة أيام. كان أحدهما يُدعى «بوريس»، والأخرى «هَنَّا». وصلا في سيارة شحن مُستأجَرة، حيث أحضرا ماسحًا ضوئيًّا هائل الحجم من متحف «رويل»، يُستخدم في رقمنة اللوحات بالحجم الطبيعي. «هَنَّا»، بصنادلها وقمصانها الفضفاضة الإثنية، كانت تبدو أكثر استعدادًا من «بوريس» لمواجهة مغامرة أمريكا اللاتينية، إلا أنها غادرت بعد فترة قصيرة متجهة إلى «ميسيونيس»، على افتراض أن العمل لا يستدعي وجودها. أعتقد أنها فرت هاربة من صراصير فندق «جران أوتيل بارَّانكاليس» ذائعة الصيت.

كانت مهمتهما تتمثل في عمل مسح ضوئي لعدة مقاطع من القماش وإرسالها مرقمنة إلى هولندا ثم انتظار التعليمات.

fb/mashro3pdf

قام بالعمل «بوريس» و«ألدو»، اللذان تفاهما جيدًا فيما بينهما على الرغم من عجزهما عن تبادل كلمة واحدة. كانت رؤيتهما معًا لافتة للانتباه: «بوريس» ممشوق القوام، له صلعة تحيط بها ستارة من الشعر الأشقر الطويل، و«ألدو»، قصير، بدين، ذو شعر أسود مجعد. كانا يتعاونان فيما بينهما على إنزال اللفائف الكبيرة ومن ثَمَّ يضعانها فوق الماسح الضوئي الذي كان ينسخ مترين من القماش كل خمس دقائق. أما أنا فقد ساعدتهما في اليوم الأول، ثم انتبهت إلى أنني كنت أعطلهما عن العمل، بالوقوف في طريقهما حين يأتيان حاملَيْن إحدى اللفائف أو حين يضطران لتصحيح الشكل الذي وضعتُ به القماش فوق الماكينة. حينئذ تنحيت جانبًا، أؤرجح ذراعَيَّ في الهواء، مع «هَنَّا» التي يرجح أنها كانت تحس بالشعور نفسه.

تحدثت إليها قليلًا، تحت ظلال المخزن، بينما يعمل الآخران. أريتها كيف نتناول مشروب المتَّة وأجبت عن الأسئلة التي طرحتها حول «سالباتيرًا» والنهر. أما هي فحكت لي، بإسبانية كأنها تُنطق معكوسة، عن دراستها العليا حول الفنون الباروكية الأمريكية، عن اهتمامها بالتأثير اليسوعي، عن عملها مع «بوريس» على الرغم من انفصالهما. لن أنكر أنني حلمت بلقاء جنسي مختلَس مع

fb/mashro3pdf

تلك المرأة رائعة الحُسن، غير أن شيئًا لم يحدث. فلا أنا حاولت ولا أظن أن مشاركة رجل مثلي الفراش كانت تدخل في إطار مشاريعها للتعرف على عجائب أمريكا اللاتينية. في اليوم التالي ذهبت «هَنًّا» للتعرف على أطلال «سان إجناسيو»، في «ميسيونيس».

fb/mashro3pdf

١٧

عندما بدأت المهمة تسير بالفعل على المسار الصحيح، قررت أن أذهب إلى بناية البريد حيث عمل «ساليناتيرًا» سنوات طوالًا. التحق بالعمل هناك عام ١٩٣٥، حمله على ذلك أحد أشقاء جدي، لم يتحمل رؤيته هائمًا على ضفة النهر من دون أن يعمل في شيء مثمر. لم يكن جدي قد ألحقه بالمدرسة، قابلًا بألا يشاطر «ساليناتيرًا» باقي إخوته الروح الرعوية، وتركه يهيم بعيدًا عن مراقبته الصارمة، ربما على أمل أن تنزل به عواقب ذلك الافتقار إلى أي اهتمام من تلقاء نفسها. ولكن، على عكس تصورات الجميع، لم يخفق أبي في حياته. فبفضل الإصرار التربوي لبنات عمه، كان خط يد «ساليناتيرًا» وضبطه للتهجئة بلا شائبة، كما كان يُحسن كتابة الخطابات. في الواقع، كان أكثر علمًا بكثير من أعمامي، ممن لم ينفعهم كونهم فرسانًا

fb/mashro3pdf

ورعاة بقر مهرة إلا قليلًا وقت إدارة الحقول التي ورثوها في بادئ الأمر ثم اضطروا لبيعها لاحقًا عند إفلاسهم. بدأ «ساليناتيرًا» عمله في البريد بصفته مساعد موظف ثم صنع مكانة لنفسه شيئًا فشيئًا.

استُقبلتُ في البناية العتيقة بريبة. سألت عددًا من الموظفين عما إذا كانوا يذكرون «خوان ساليناتيرًا» أو يعرفون أحدًا قد التحق بالعمل قبل عام ١٩٧٥، وهو العام الموافق لتقاعده. أحالوني من شخص لآخر، بين ردهات كئيبة، وأبواب شاهقة الارتفاع، وقاعات شاسعة، ترددت أصواتنا بداخلها خافتة، على نحو غير متناسب، وكأننا أقزام نحتل الآن تلك البناية التي كانت لجنس من العمالقة فيما مضى.

في أحد المكاتب استقبلتني امرأة عجوز ذات عظام بارزة. نظرت إليَّ بعينين خضراوَيْن واسعتَيْن، فيما تتنشق دخان سيجارتها. حين عرَّفتها بنفسي تأثرتْ كثيرًا، وقالت لي إنها أدركت الآن لماذا بدا لها وجهي مألوفًا حين رأتني أدخل إلى المكتب. سمحت لي بالدخول وتحدثنا لبعض الوقت. كانت تُدعى «إوخينيا روكامورا»، والتحقت بالعمل هناك في العشرين من عمرها. أطلعتني على المكتب الذي شغله «ساليناتيرًا» سابقًا (كنت أعرفه بالفعل، إذ أخذني إليه صغيرًا غير مرة). حكت لي كيف كان الجميع يحبه

fb/mashro3pdf

ويحترمه. أطلعتني على صورة قديمة لموظفي البريد، فوق درجات المدخل، حيث ارتسمت على وجه «سالباتيرًا» ابتسامة. قالت:

ـ كانت تلك أنا. انظر كم كنت حلوة.

ثم نظرت إليَّ بوميض من الحزن واللطف.

بالفعل بدا لي أنها كانت آية في الجمال في شبابها.

عند سؤالي لها عما إذا كانت تعرف شيئًا عن لوحة «سالباتيرًا»، أو إذا كان قد أفصح لها بشيء عن إهدائه أحد أجزاء اللوحة، أخبرتني أنها لم تكن تعرف حتى بأن «سالباتيرًا» يرسم. رافقتني حتى باب الخروج، وفي الطريق أطلعتني على لوحة تحمل أسماء كثيرة من بينها اسم أبي. كانت أسماء الموظفين المتقاعدين بعد خدمة تزيد على خمسين عامًا في البريد.

fb/mashro3pdf

١٨

في الشارع نال مني التعب بغتة. حركتُ دواستَي الدراجة على مضض متجهًا صوب الضواحي، حيث بدت الشوارع مرسومة بفرشاة «سالباتيرًا»: الحانات وقد تقشر الطلاء عن جدرانها، الناس يتنشقون الهواء المنعش على الأرصفة، الأشجار وقد بدت فروعها المشذبة كالأطراف المبتورة، والأبقار مربوطة، ترعى وسط قنوات الصرف. كنا نمر من هناك أحيانًا عندما كان يأخذني من بيتنا بالقرب من منتزه البلدية إلى المدرسة جالسًا على مقود دراجته.

وفجأة، في مربع سكني لم ترصف طرقاته، نبح كلب أسود في وجهي محاولًا نهش قدمي. رأيت عجوزًا ذا لحية بيضاء مدببة يعنف الكلب من مكانه عند باب البيت، حاملًا حقيبة. تطلعت إليه متفحصًا، إذ لفت انتباهي. كان

fb/mashro3pdf

يشبه «ماريو خوردان»، صديق أبي. اقتربت منه وسط نباح الكلب سائلًا:

ـ هل أنت «ماريو خوردان»؟

ـ أجل.

ـ أنا «ميجيل سالباتيـرًّا»، ابن «خوان سالباتيـرًّا».

ـ آه، كيف حالك؟

كان «خوردان» يرتدي فانلة وبنطالًا وصندلًا من القماش، ويحاول إغلاق الحقيبة الممتلئة بالأغراض. لعله كان في الثمانين من العمر. سألته:

ـ هل أنت خارج؟

فأجابني قائلًا:

ـ أجل.

ثم نظر إلى جانبَي الطريق.

ـ هل يمكنك أن تساعدني؟

ناولني الحقيبة فوضعتها فوق مقود الدراجة. سِرنا معًا، ببطء.

ـ إلى أين نحن ذاهبان؟

fb/mashro3pdf

ـ إلى هناك، بعد المقابر.

أخذ ينظر خلفه بين الحين والآخر. ثم قال:

ـ هيا نسرع الخُطى فهم يطاردونني.

عبثًا حاول أن يحث الخُطى. نظرت خلفي فلم أجد أحدًا.

ـ من يطاردك؟

ـ شخص ما أدين له بنقود. لا تنظر خلفك.

كان يسير وهو يكاد يجر قدميه جرًّا، يرفع يده من حين إلى آخر مشيرًا إلى الطريق التي ينبغي علينا أن نسلكها، وكأنه يريد التشبث بالهواء ليسرع الخُطى. تشجعت على سؤاله:

ـ هل تذكر «سالباتيرًا»؟

أجاب شبه غاضب:

ـ وكيف لا أذكره؟

ولم يزِد حرفًا حتى بلغنا الناصية.

ـ أتذكر أنه كان يرسم؟

ـ آها.

ـ ألا تعرف إذا كان قد أهدى إحدى لفائف لوحته؟

fb/mashro3pdf

فقال:

ـ توجد الآن زوارق حديثة وأكثر خفة، ولكننا سنذهب إلى المحطة.

كررت سؤالي، فأجاب قائلًا:

ـ سنرى حالًا، سنرى حالًا.

بدأ صبري ينفد. كانت مرافقتي له خطأ من الأساس. والآن يريد العجوز أن يذهب إلى محطة القطار. قلت له:

ـ ولكن القطار لم يعُد يمر من هناك يا «خوردان».

ـ لقد عاد الآن. هناك قطار في السادسة والنصف.

أسندنا الدراجة إلى جدار الطوب ثم صعدنا درج المحطة. اكتست شقوق الأرضية الإسمنتية بالعشب. كان كل شيء مقفلًا. لم يكن ثمَّة أحد. لم يمر القطار منذ خمسة عشر عامًا. جعلني أنزل الحقيبة وأضعها فوق رصيف القطار. كادت الحشائش تكسو خطوط السكك الحديد. قلت له:

ـ هيا نعود يا «خوردان»، لم يعُد القطار يمر من هنا.

ـ في السادسة والنصف يمر قطار. هل معك ساعة؟

fb/mashro3pdf

فأجبت كاذبًا:

ـ أجل، الساعة السابعة تقريبًا.

ـ هذا لا شيء على الإطلاق. أحيانًا يصل متأخرًا قليلًا.

لم أكن أعرف ماذا أقول له. خطر لي أن أجاريه.

ـ وهل ستسافر هكذا بالفانلة؟

نظر إلى نفسه ثم قال:

ـ سحقًا، اللعنة. هكذا لن يسمحوا لي بالصعود إلى القطار. هل يمكنك أن تعيرني قميصك؟

أجبته بالنفي، فأراد أن يفتح الحقيبة ليرى إذا كان قد أحضر ما يمكن ارتداؤه. طال الأمر وبدأ المساء يتسلل. وفجأة سمعنا صوتًا مناديًا:

ـ جدي.

تسمر «خوردان» في مكانه.

ـ يبدو لي أنهم ينادونك.

فقال من دون أن يلتفت إليها:

ـ تلك الحمقاء.

اقتربت منا سيدة. اعتذرت لي وقالت إنه يفر منهم هاربًا

fb/mashro3pdf

بين الحين والآخر. أخبرتها أن «خوردان» كان صديقًا لأبي وأطلعتها على رغبتي في طرح بعض الأسئلة عليه، فقالت:

ـ تعالَ غدًا لتراه. لن يكون تائهًا إلى هذا الحد.

أمسكَت بالحقيبة وأخذَت «خوردان» من ذراعه.

تجولتُ في أرجاء المحطة إلا أنني غادرت في الحال، إذ بدأت أشعر بالأسى من فرط ما رأيت من هجران.

fb/mashro3pdf

١٩

كان «ساليناتيرًا» يستطيع البقاء ساعة من دون أن يرسم، واقفًا في مواجهة القماش، أو على مقربة من الموقد الحديدي الذي كان يدفئ ركنًا من أركان المخزن خلال الأشهر الأشد برودة، أو جالسًا أحيانًا على كرسي حلاق اشتراه من أحد المزادات. كان يبقى متفكرًا، جامدًا، وربما متأملًا ما سوف يرسم. وفجأة، تمر بالقرب منه ذبابة، فيقبض عليها براحة يده سريعًا. لم يخطئ الهدف قط.

كان يضبط موجات الراديو المحلي على موسيقى «التشاماميه» الشعبية، و«البولكا» الباراجوانية، و«التشامارّيتا»، وسط أصوات المذيعين الذين كانوا كعادتهم يرددون الدعاية نفسها والتعليقات اللانهائية حول الكرنفال.

ومع تلك الضوضاء المنبعثة في الخلفية، أحيانًا كان يبقى

fb/mashro3pdf

دافنًا رأسه بين يديه. من لا يعرفه ربما كان يظنه مكتئبًا، في حين أنه كان مستغرقًا في عمله ليس إلَّا. وفجأة كان يقوم من مجلسه ليشرع في رسم بعض الخطوط، أو ليتصفح كتبًا تضم صورًا ونقوشًا، كانت تتراكم فوقها الأتربة على أحد الأرفف. بمضي الوقت، أنشأ مكتبته الفنية الخاصة شيئًا فشيئًا، ولا سيما بعد مرور حقبة الستينيات، حين بدأت طباعة النسخ الملونة المطابقة للأصل من الأعمال الفنية. أذكر مجموعة كانت تُدعى «معرض العباقرة». كان يحب فنانين على درجة كبيرة من التنوع، «بيلاثكيث»، والطبيعة الصامتة عند «ثورباران»، و«كارافاجيو» (كانت لديه نسخة من لوحة «دخول بولس الرسول المسيحية» مثبتة بدبوس إلى أحد العواميد)، و«ديجا»، و«جوجان»، و«كانديدو لوبيس»، بل وحتى تحولات «إيشر»، وصور الأفاريز الرومانية، والفريسكو المينوسية. كان يبدي اهتمامًا بلوحات العصور الوسطى التي كانت تزين مذابح الكنائس حيث تظهر الشخصية نفسها عدة مرات في المنظر الواحد. كان يتطلع إلى تلك اللوحات طوال ساعات. أعرف أنه كان يسعى للتعلم بصفة مستمرة. فكان يتشرب بكل ما ينفعه، بحرية مطلقة، جاعلًا منه شيئًا يخصه. لم يكن «سالباتيرًا» قد حظي بفرصة للتردد على المتاحف، ولذا كانت تلك الكتب وسيلته في مواصلة التعلم الذاتي.

fb/mashro3pdf

أحيانًا كان يشرع في التفتيش عن شيء ما فوق طاولة ضخمة استُخدمت فيما سبق بمصنع تبغ، كان يجمع فوقها أوراقًا يابسة، حشرات، صورًا، عظامًا، أشياء معثورًا عليها أو أشياء جلبها النهر: جذورًا، أخشابًا بالية، أحجارًا مستديرة كان يستخدمها السكان الأصليون قذائف لمقاليعهم، شظايا زجاج ملون، وأشياء شتى. ثم يمسك بأحدها ويدرسه عن كثب ليرسمه في مكان ما على القماش.

أذكر أننا خرجنا ذات مساء، بعد سكون عاصفة، للتجول بالمكان، فالتقطتُ خنفساء طويلة القرن من تلك المسماة بـ«الثيران الصغيرة» في أثناء مرورها عبر وحل الطريق، وأخذتها إلى المخزن. في اليوم التالي تبينت أن «ساليناتيرًا» قد رسمها عملاقة، تحتل طول القماش بالكامل. بتكبير حجمها (في الواقع، كان ينظر أحيانًا إلى الأشياء من خلال مُكبِّر)، كان يحسن رصد الجانب الميكانيكي البارد لبعض الحشرات إلى حد بعيد، فبدت تلك الخنفساء بارجة حربية، بأذرعها المسننة، وعينَيها الدقيقتَين القاسيتَين، وذلك القرن الهائل الذي يعمل عمل الكماشة كي تحمل الخنفساء أسراها عاليًا، قرن يطل من رأس جسد محكم، يوحي بالقتل على نحو جليٍّ.

fb/mashro3pdf

كانت تلك النوعية من الرسوم الأولية للنباتات والحشرات تبدو وكأنها اسكتشات الرب قبل الخليقة. في البدء كانت تظهر الرسوم الأولية، بالتفصيل، ليعسوب على سبيل المثال، وكأنه يبتكرها، ويدرجها لأول مرة في كون القماش الخاص به. بمختلف الألوان، كان يرسمها من الأعلى، من الأسفل، من الأمام، ثم لا تعاود اليعسوب الظهور إلا لاحقًا، بعد مرور أسابيع، حين يبدو وكأنه قد نسي المسألة، فتظهر من تلقاء نفسها، بكل طبيعية، أصغر حجمًا، حية، مندمجة في جو المشهد.

دائمًا ما عجبت لكيفية ظهور الأشياء في العمل واختفائها. كان القماش بمثابة هواء طلق ممتد حيث يمكن للكائنات الرحيل ثم معاودة الظهور بعد زمن. عادة ما يحدث شيء مشابه في الموسيقى، حيث تعاود اللازمة الظهور بتنويعات مختلفة. ذات مرة رسم صغيرَ أرنب بري كنتُ قد وجدته، ثم رسمه «سالباتيرًا» نائمًا وسط العشب في وقت لاحق، على الرغم من موت الأرنب البري. فسألته:

ـ أهو أرنبي؟

أومأ برأسه.

ـ أين كان مختبئًا؟

fb/mashro3pdf

فأشار إلى فُرش الرسم والألوان.

ربما بسبب مظهر الهواء الطلق غير المحدود الذي اتسم به القماش يصعب عليَّ أن أسميه لوحة، إذ إن «لوحة» كلمة توحي بإطار، بساج يحيط ببعض الأشياء، وهو تحديدًا ما سعى «ساليناتيرًا» لتجنبه. كان يسترعي اهتمامه غياب الأطر والجحور، التواصل المحتوم بين المساحات. فالحدود في عمله مُخترَقة، كل مخلوق تحت رحمة باقي المخلوقات، واقع في شَرَك قسوة الطبيعة. الكل حبيس. حتى البشر.

أراد «ساليناتيرًا» أن يعطي الانطباع بأنه بمجرد إدراج مخلوق في اللوحة، يصبح قادرًا على عبور المساحة المرسومة، والمضي قدمًا خلال القماش ومعاودة الظهور. لا أحد معصومًا. حتى المشاهد التي تدور في خصوصيات البيوت، لا يمكنها البقاء بمعزل أو بمأمن، فثمَّة من يتربص دائمًا في الظلمة المشوبة بالنور، متلصصًا، أو رجل مستغرق في النوم بينما تتسلل حيوانات كوابيسه المريضة عبر مرايا حجرته. فليس من «داخل»، ليس من بيت، الكل أعزل على تلك الأرض، أرض الألوان التي لا تمكث أبدًا.

كان «ساليناتيرًا» يرسم كل يوم، ويدوِّن التاريخ أسفل

fb/mashro3pdf

الموضع الذي بلغه كل سبت باللون الأزرق. أحيانًا كان يرسم خمسة أمتار في الأسبوع، وأحيانًا أخرى مترًا واحدًا، لا أقل. وهو ما كان يتفاوت وفقًا لدرجة التفصيل في كل جزء من أجزاء اللوحة. ولكنه لم يتوقف قط، فبالنسبة إليه لم يكن القماش نفسه يتوقف. كانت تبدو طريقته في التعوُّذ من شر الجمود. وكأن القماش كان ينطوي من تلقاء نفسه أبدًا، في اتجاه اليسار، على نحو لم يكن يستطيع تجنبه. لم يكن يسمح بالعودة إلى الوراء. في حال رسم شيئًا ولم يعجب به، كان يعاود رسمه لاحقًا بشيء من التنويع، ولا يصوب ما رسم بالفعل. فالمرسوم كالماضي، لا يتبدل.

أحيانًا، كانت تلك القوى التي تدفع القماش إلى الأمام كالسيل الجارف تبلغ من الشدة حدًّا تبدأ معه الأشياء في الميل وفقدان التوازن على القماش. ثمَّة أجزاء رُسمت فيها الأشياء أفقيًّا، يجرفها تيار الحياة، وكأن قوى الزمن غلبت قوى الجاذبية.

بدأ يتضح هذا الاختلال في التوازن عقب وفاة أختي، عام ١٩٥٩. في البدء شرع «سالباتييرًّا» يرسم أركانًا من الأرياف، في رسوم مشؤومة إلى حد بعيد، شديدة العزلة، وسط شجيرات «التشانيار» والشجيرات الشوكية. مشاهد

fb/mashro3pdf

متشبعة يبدو كل سنتيمتر منها حيًّا بقسوة. في أحدها، تبدو طفلة واقفة بلا حراك بينما تتسلق جسدها جحافل النمل مرورًا بساقها، وسرب من الدبابير يحيط برأسها حاجبًا وجهها. المساحة بالكامل عبارة عن منافسة بين كائنات يوخز بعضها بعضًا، يلتهم بعضها بعضًا، يستغل بعضها بعضًا للبقاء على قيد الحياة والتكاثر.

ثم بدأ «سالباتييرًا» في رسم أختي على نحو أقل إيلامًا: غارقة، وكأنها نائمة، وقد طهَّرها النهر، «أوفيليا» المياه العكرة الدفيئة. أراد «سالباتييرًا» أن يرسم قوى النهر على قماشه، وفي المقابل طالبه النهر بابنته ذات الاثني عشر عامًا. جرفها النهر ببطء ولكن بلا هوادة، من دون أن يستطيع إيقافه. وهكذا رسمها: «إستيلا» غارقة في بركة الصفصاف، «إستيلا» وسط الأسماك المتوحشة، شعرها متشابك وسط أعواد البوص النامية على الضفة، فستانها ثقيل، جفناها يَسبحان مع التيار الهادئ، بالكاد تُرى «إستيلا» تحت السطح، وسط السحب التي انعكست صورتها على صفحة المياه.

وهناك يبدأ كل شيء في الميل تحت وطأة رياح الساعات العاتية، فيظهر الناس في وضع أفقي، يجرفهم التيار الخفي، وتشعث أوراق الشجر جانبًا، الحيوانات،

fb/mashro3pdf

الأمطار، كلٌّ يتداعى جانبًا، لا يملك أن يتوقف. إلى أن يبدأ كل شيء في الوقوف رأسًا على عقب، ينقلب إلى الأسفل، وفي لحظة من اختلال التوازن المطلق، لا بد أن أبي قد شارف خلالها على الجنون بحسب اعتقادي، ينقلب ذلك الكون رأسًا على عقب، يدور المنظر حول ذاته، فتصبح السماء بالأسفل والأرض بالأعلى، وكأن أبي قد عاود رؤية العالم من خلال خوفه من التعلق بركاب حصان يعدو مندفعًا وسط الأشجار.

fb/mashro3pdf

٢٠

كان بيت «خوردان» بلا جرس، فصفقت بيدَيَّ. اقترب مني جرو أصفر اللون بدافع الفضول. ثم جاء الكلب الأسود الذي رأيته اليوم السابق. كان البيت يقوم في الجزء الخلفي من قطعة أرض صغيرة، وهو عبارة عن بناء مربع له حجرتان حيث بقي الإسمنت بدون طلاء. إلى جواره غُرست كرمة عنب لتظليل المكان. كنت على وشك الذهاب حين تناهى إلى مسامعي صوت عطاس. كان «خوردان» بالداخل إلا أنه لم يسمعني. ناديته فلم يرد. حينئذ فتحت باب السياج ودخلت. ناورني الكلب مزمجرًا، فحاولت السير من دون أن ألتفت إليه. عند بلوغي البيت أنشب الكلب أسنانه في طية البنطال، فبدأت أزجره: «اذهب». إلا أنه لم يفلتني من بين أسنانه. حينئذ ظهر «خوردان»، أشعث الشعر. فصرف الكلب ونظر إليَّ مندهشًا.

fb/mashro3pdf

ـ أنا «سالباتييرًا»، أتذكر؟

ـ آها.

ـ أعتذر عن دخولي هكذا، ولكنني صفقت بيديَّ و...

فقال «خوردان»:

ـ تفضل بالدخول.

دلفنا إلى إحدى الحجرتين، حيث يقوم المطبخ. مكان بلا إضاءة، به طاولة وبضعة كراسٍ، وعلى الجدار مرآة مستديرة ورزنامة بها صور تبين فنون ومهارات الفروسية. جلستُ بينما أخذ يُعد المياه المغلية لتناول المتَّة. لاحظت أن يده اليمنى مضمدة. جلس في الركن المقابل بينما تسخن المياه. سألته محاولًا كسر الجمود:

ـ ألم تعد تعزف على الأكورديون؟

فأجابني قائلًا:

ـ كلَّا.

ثم سحب شيئًا من خلف الكرسي.

ـ الآن أعزف على البندقية.

وجدته يصوب نحوي بندقية ذات فوهتين. ذات مرة تعرضت للسرقة في سيارة أجرة بمدينة بوينوس آيرس

fb/mashro3pdf

تحت تهديد مسدس، غير أنني لم أره، إذ كانت فوهته مصوبة إلى أضلعي. لا بد أن السارق كان شرطيًا، فقد كان قصير الشعر، وعلى قدر كبير من الهدوء. أما هذا فكان مختلفًا. عجوز مختل، ترتعش أصابعه بشدة، يصوب إلى وجهي بندقية تصلح لصيد خنازير الماء.

بدأت في القيام من مجلسي قائلًا له أن يتوخى الحذر. فقال لي:

ـ اجلس وإلا نسفت رأسك.

جلست في حين ظل يتفحصني.

ـ إذن، «ساليناتيرًا»... ما زلت تبحث عن نفس الشيء، أليس كذلك؟

فسألته:

ـ أي شيء؟

ـ اللوحة.

ـ أجل. ولكن لماذا لا تخفض البندقية يا «خوردان»؟ لنتحدث بهدوء، لماذا تصوب البندقية نحوي؟

ـ أنت مدين لي.

ـ مدين لك؟

fb/mashro3pdf

ـ أنت مخنث حقير، تلك هي حقيقتك.

ـ لا أعرف عما تتحدث. هل البندقية محشوة؟

ـ بطلقتين من خرطوش «أوربيا ١٦». واحدة لتعذيبك والأخرى للإجهاز عليك.

ـ هدِّئ من روعك، يا سيد. سوف أغادر. غدًا سأحضر ما تقول إنني مدين لك به بكل تأكيد. اتفقنا؟

فأجابني غاضبًا:

ـ لم نتفق على أي شيء!

أطرقت ساكنًا. كان الماء يغلي بالفعل. وكانت إصبع «خوردان» على الزناد، وبندقيته مصوبة إلى رأسي، إلا أنها أخذت تميل نحو معدتي تحت ثقل الماسورة، فيعاود رفعها من حين إلى آخر.

ـ خائن، وفوق ذلك كاذب. إذن فالأخرس لم يكن أخرس إلى هذا الحد.

ـ يا «خوردان»، أنا لست «خوان سالباتيرًا» بل «ميجيل»، الابن.

ـ وأنا الجنرال «بيرون». أنت مدين لي بنصف حمولة من «الحصان الأبيض» بقيت في المخزن الخاص بك.

fb/mashro3pdf

فسألته:

ـ أي «حصان أبيض»؟

ـ لا تتصنع البلاهة يا «خوان». أنت تريد لوحتك، وأنا أريد «حصاني الأبيض».

ـ هل اللوحة عندك؟

ـ كلا. ولكني أعرف من يحتفظ بها. أحضر لي الويسكي الخاص بي وبعد ذلك سنرى.

ـ كم من الويسكي؟

ـ الأربعون صندوقًا التي تدين لي بها.

ـ حسنًا، غدًا أحضرها لك.

ثم بدأت في القيام من مجلسي.

ـ اجلس مكانك.

عاودتُ الجلوس.

ـ أتعرف لماذا أرغب في قتلك؟ منذ متى ونحن نعرف بعضنا يا «خوان»؟

فسألته:

ـ منذ متى؟

fb/mashro3pdf

ـ نعرف بعضنا منذ أن كنا صبيَّيْن. كنا كأخوَيْن، نسبح في النهر معًا طوال اليوم. كنا شريكَيْن. ثم أردت أنت أن ترحل، فتحملتُ ذلك كارهًا، أليس كذلك؟

توقف لوهلة حتى أجيبه، فلم أحر جوابًا.

ـ هل تعرف أن «إيبانييس» و«باسكيس» كانا يريدان تصفيتك؟

ـ كلَّا.

ـ تحدثتُ إليهم حتى يتركاك وشأنك. ولكن حين أغلقت مخزنك في وجهي... حينئذ استشطت غضبًا، يا رجل. لا أدري لمَ سامحتك.

أطرق العجوز، تفرس في عينَيَّ ثم قال:

ـ ولذا فأنت مدين لي بأكثر من «الحصان الأبيض» بكثير يا «خوان». أنت مدين لي بحياتك.

لم أنبس بكلمة. وفيما نحن على تلك الحال تناهى إلى مسامعنا وقع خطوات تقترب. كانت حفيدة «خوردان».

ـ مرة أخرى تعبث بالبندقية، يا جدي!

ثم انتزعت منه البندقية وكأنها تنتزع لعبة من طفل صغير. نظرت نحوي، ورفعت الماء المغلي عن النار ثم سألت:

fb/mashro3pdf

ـ هل أفزعكَ بالبندقية؟

وأضافت هامسة:

ـ لا تقلق. فقد كشط أخي ديك البندقية.

ثم بصوت مرتفع:

ـ دعني أرَ يدك، يا جدي.

وبدأت تتفحص الضمادة.

ـ عبثتَ بالضمادة بالفعل. يجب أن تتركها مكانها. وحذارِ من القِدر ذات المقبض غير المحكم، وإلا أصبت نفسك بحروق مرة أخرى.

قلت لها:

ـ أنا ذاهب. إلى اللقاء.

ثم خرجت على عَجل. عاود الكلب محاولة نهش قدمي، ولكن الآن، وبعد كل هذا الخوف القاتل الذي تملَّكني، كاد يبدو لي كلبًا لطيفًا.

fb/mashro3pdf

٢١

حركت دواستَي الدراجة متجهًا إلى كابينة التلفون كي أتصل بأخي. لا أعرف لماذا، ولكن ما إن أفقت من الفزع الذي انتابني حتى أخذ جسدي يرتجف. بالكاد تمكنت من ضغط الأرقام. حين رد «لويس»، أخبرته أنني قد التقيت بـ«خوردان». بالكاد كان يتذكر من هو. حكيت له الواقعة كاملة. وأوضحت له أن اللفافة المفقودة قد سرقها «خوردان» انتقامًا من «سالباتيرًا» لعدم سماحه له بالاستمرار في استخدام المخزن لحفظ البضائع المهربة. لم يفهم «لويس» شيئًا. كنت مضطربًا وأتحدث بسرعة بالغة. أضفت قائلًا:

ـ يبدو لي أن والدنا كان مهرِّبًا.

فغضب «لويس» ونعتني بالمجنون، وأخبرني أن أتوخى المزيد من الحذر فيما أقول، ثم سألني من أين أهاتفه. كانت محادثة عبثية.

fb/mashro3pdf

بوصولي إلى البيت، لم أستطع التوقف عن التفكير. تطلعتْ إليَّ أمي من البورتريه الخاص بها. من جانبها، لم ترغب يومًا في سماع مجرد الحديث عن عصابة «خوردان». كانت كلما عرفت بوجودهم في المخزن ترسلني أو أخي لتفَقُّد «سالباتيرًا». دائمًا ما كانت تعترض على تلك الصداقات. إلا أن «سالباتيرًا» كان يعرفهم منذ أيام الطفولة، ولا بد أن الابتعاد عنهم قد صعب عليه. في النهاية نجحت أمي في إقناع أبي بإغلاق المخزن في وجوههم. كانت لها قدرة على الإقناع بطيئة وتدريجية، ولكنها لا تُقهر على المدى البعيد.

كانت تقول إنها تنحدر من ذرية الزعيم «فرانسيسكو راميريس». لم أستطع تتبع ذلك الجانب من شجرة العائلة جيدًا قط. كان جدي لأمي قد توفي بعد ولادتها بوقت قصير. ويُفترض أنه كان حفيد شقيق «راميريس». وهو ما لن يُعرف أبدًا. الأمر وما فيه أن أمي كانت تنسب لنفسها تلك القرابة، وهو ما كان يبدو أن أسلوبها في التعامل معنا ومع أبي يؤكد صحته في بعض الأحيان. وبمضيِّ السنين، أخذت أمي تزداد جفافًا وصرامة. أصابها موت أختي بالجمود إلى الأبد. لم نعد نرى البسمة ترتسم على شفتيها.

أما بالنسبة إلى «سالباتيرًا»، فما لم تكن تزعجه في مهمة

fb/mashro3pdf

الرسم على القماش التي أخذها على عاتقه، كان من عادته أن يصغي إليها. أيكون لهذا السبب نعَتني «خوردان» بـ«المخنث»، ظنًّا منه أنه يتحدث إلى أبي؟ هل كان «خوردان» وجماعته مهربين؟ لصوص ماشية؟ لصوص خيل؟ وهل كان «سالباتييرًا» شريكًا لهم ذات مرة؟ هل كان أبي مهرِّبًا؟

حاولت أن آخذ قيلولة إلا أنني لم أستطع. تقلبت في فراشي بينما تستقر الأشياء التي قالها لي العجوز في مكانها، وكأنها تغوص ببطء في الصور المرسومة على القماش وفيما أعرفه عن «سالباتييرًا».

استطعت أن أخلُص إلى أنه قد عمل معهم ذات مرة في أمر من الأمور الشائكة، والأرجح أنه عمل معهم في تهريب صناديق ويسكي «وايت هورس». لا بد أن المخزن كان مكانًا آمنًا إلى حد كبير لإخفاء البضائع المهربة، فلم يكن أحد ليرتاب في «سالباتييرًا»، رجل أخرس، موظف بالبريد، وعلى هذا القدر من حُسن الطباع. فضلًا عما قالته قريباتي اللاتي تربطنا بهن صلة قرابة بعيدة، فأذكر الآن قولهن باستنكار منذ أيام: «في ذلك المخزن يمكنك العثور على أي شيء».

لا بد أن «خوردان» قد شعر بخيانة أبي له حين أغلق

fb/mashro3pdf

أبواب المخزن في وجهه، وفكرت أنه ربما لهذا السبب سرق منه إحدى لفائف اللوحة. كان من الواضح أن «سالباتييرًا» ذهب مطالبًا بها في وقت من الأوقات، إلا أن «خوردان» لم يرغب في ردها. أو ربما لم تكن في حوزته. كان «إيبانيس» و«باسكو سالاسار» يريدان قتله. تذكرت تلك المرة حين شقَّ «فيرمين إيبانيس» الأسود القماش بطعنة من سكينه. وفقًا لحساباتي، لا بد أنني قد حضرت تلك الواقعة وأنا في العاشرة أو الحادية عشرة من عمري. بلغت الحادية عشرة عام ١٩٦١، العام الموافق للفافة المفقودة. ذهبت إلى المخزن محاولًا العثور على القماش المشقوق.

لم يكن أيٌّ من «بوريس» أو «ألدو» هناك. فما كانا يستأنفان العمل حتى الثالثة. سرعان ما تأقلم الهولندي على استراحة القيلولة. لم أستطع إنزال أكثر من لفافة واحدة حتى وصلا. فأنزلت اللفافة الموافقة لعام ١٩٦٠، بسطتها ببطء، بيد أنني لم أرَ أي شقوق أو ترقيعات في القماش. ظهرت في بعض المقاطع بورتريهات لأختي غارقة. كان لرؤيتها على نفسي شديد الأثر، إذ بدت فيها أختي حية، تسبح مغمضة العينَين، تاركة نفسها للمياه تجرفها. كنت في التاسعة من عمري حين توفيت «إستيلا»، وبالكاد أذكرها كشخص كان

fb/mashro3pdf

يلعب في أرجاء المنزل ويُغضب أمي بعدم تناوله الطعام. عندي لها صورتان بالأبيض والأسود. على الحال نفسها دائمًا، وقد تجمدت في تلك اللحظة، صورتان لم تعودا تقولان لي شيئًا تقريبًا من فرط ما شاهدتهما. ولذا فقد أثرت في نفسي رؤيتها بالألوان، بتلك المهارة التي تميز بها «سالباتيرًا» في رصد ما يحب بخطوط قلائل، وكأن الحياة تدب في كل شيء. لأن لوحاته تنساب، ترحل، ليست بساكنة، بل تنساب نحو غاية ما، نحو ذوبان اللوحة ذاتها في قلب المنظر.

عندما وصل «ألدو» ساعدني على إنزال لفافتي ١٩٥٩ و١٩٦٢. لم يكن بأي منهما شقوق أو ترقيعات. كنت شبه متأكد: القماش المفقود هو الذي قد شقه «إيبانيس».

fb/mashro3pdf

٢٢

في اليوم التالي دخلت إلى السوبرماركت المجاور للمخزن وقطعت ممر المشروبات الكحولية. وجدت «تشيفاز» وإن لم أجد «وايت هورس». فضلًا عن ذلك، فلم يكن معي من النقود سوى ما يكفي لشراء زجاجة واحدة فحسب. ولكن إذا كنت أرغب في الحصول على معلومات من «خوردان» فلا يمكن أن أقصده خاوي اليدين، ولذا فقد اشتريتها.

بالخارج كانت هناك شاحنة تسببت في تعطيل المرور عند محاولة قائدها الدخول إلى أحد المستودعات سيرًا إلى الخلف. بقيتُ أراقب المشهد لاستحالة إدخال تلك الشاحنة هناك. اقترب مني رجل أكرش، ذو قميص مشمر الأكمام. كان «بالدوني»، مالك السوبرماركت. بادرني بالسؤال:

fb/mashro3pdf

ـ متى تبيعني ذلك المخزن يا «سالباتيرًا»؟

ـ آ... الأمر عسير.

ـ أتود التفضل إلى مكتبي، لتتحدث بقدر أكبر من الهدوء؟

ـ أنا في شيء من العجلة.

ثم قال بدون المزيد من اللف والدوران:

ـ كما شئت. ولكن لاحظ أننا في حاجة لمساحة هنا لتحميل البضائع وإنزالها... كم تريدون مقابل قطعة الأرض؟

ـ لم تعد الأرض معروضة للبيع. هناك من يعمل في المخزن الآن، على أحد أعمال أبي.

ـ أجل... تمثال، أو شيء من هذا القبيل؟

ـ لوحة.

ـ أخبرني «البدين» شيئًا بهذا الشأن.

لا بد أنه قصد بـ«البدين» سكرتير الأنشطة الثقافية. لم أقل شيئًا فأشاح «بالدوني» بوجهه قائلًا:

ـ أعرض عليكم عشرة آلاف «بيزو» مقابل قطعة الأرض.

لم يكن عرضًا سيئًا. التفت إليَّ «بالدوني»، فقلت له:

fb/mashro3pdf

ـ حسنًا، كما تعلم، أمتلك شركة عقارية... وذلك العرض...

ـ في بوينوس آيرس؟

ـ أجل...

ـ ولكنك لن تقارن بين الأسعار في العاصمة وبينها هنا.

فقلت من دون إيضاح:

ـ كلَّا، ولكن... على كل حال، عندما ينتهي العمل يفترض بنا أن نأخذ أغراضنا من هناك، حينئذ يمكن بيع المخزن.

ـ وكم تبقى من الوقت على هذا؟

ـ تبقى وقت.

ابتسم «بالدوني» بشيء من الضيق. ودَّعته، ثم غادرت ومعي الزجاجة في كيس معلق بمقود الدراجة.

fb/mashro3pdf

٢٣

كان «خوردان» واقفًا عند الباب، متكئًا بمرفقيه على السياج، وقد وضع نظارته وأحسن تصفيف شعره. لم ينبح الكلبان. بادرته بالتحية فيما أتحقق من عدم وجود البندقية على مقربة منه:

ـ صباح الخير.

ـ صباح الخير.

رد التحية وظل يتفرس في وجهي من دون أن يتعرف عليَّ.

ـ أنا «ميجيل سالباتييرًا».

ثم أضفت موضحًا:

ـ «ميجيل»، ابن «خوان سالباتييرًا».

فقال وهو يصافحني مادًّا يده من فوق السياج:

fb/mashro3pdf

ـ كيف حالك يا رجل؟

ـ أحضرت زجاجة كان أبي مدينًا بها لك.

ناولته الزجاجة فأمسك بها مندهشًا:

ـ ولكني أقلعت عن الشرب منذ سنوات. أشكرك، ولكن خذها، وإلا وقع بصر حفيدتي عليها فتثور ثائرتها.

بقيت هناك واقفًا والزجاجة في يدي، لا أعرف ماذا أقول له. اليوم بدا أقرب إلى صوابه.

ـ يا «خوردان»، أتذكر لوحة «ساليناتيرًا»؟

ـ أجل. اللوحة الطويلة التي كان يرسمها على لفائف؟

ـ أجل. أنت تعرف أن إحدى اللفائف مفقودة.

ـ لا بد أنها في حوزة «إيبانييس».

ـ «فيرمين إيبانييس»؟ الأسود؟

ـ الأسود، أجل. ينبغي التحقق من وجوده على قيد الحياة. فلا بد أنه قد طعن في السن.

ـ وأين يمكنني العثور عليه؟

ـ لقد قضى حياته متنقلًا على ضفة النهر دائمًا. ناحية ملعب كرة «البوتشي». أحيانًا كان يقصد تلك النواحي

fb/mashro3pdf

بعد إغلاق الملعب، يُقال إنه كان يسير صارخًا، يراهن الهواء، متحدثًا إلى نفسه.

ـ يراهن من دون أن يكون هناك أحد؟

ـ لا أحد إطلاقًا! ما أكثر المسنين المجانين في هذه الأنحاء أيضًا.

ـ وهل تعتقد أن اللوحة في حوزة «إيبانيس»؟

أجابني «خوردان» ضاحكًا:

ـ هو الذي سرقها. كان يريد أن يشعل فيها النيران. فقلت له إن الأحرى به أن يبيعها، لماذا يشعل فيها النيران؟ بِعها، تجعل منها أوراقًا نقدية! ولكن «إيبانيس» كان على شيء من الحماقة.

ـ ولماذا سرقها منه؟

ـ وما أدراني؟ أمور صبيانية.

ـ صبيانية؟ ولكنهما كانا قد تجاوزا الأربعين عندما حدث ما حدث.

ـ حقًّا؟ إذن، لعلهما كانا قد أسرفا في الشراب. «إيبانيس» قضى حياته مخمورًا.

ـ كم عامًا مر على هذه الواقعة تقريبًا؟

fb/mashro3pdf

ـ وما أدراني؟ أعوام طويلة. لم نعد لمقابلة «سالباتييرًا» منذ ذلك الحين. فقد عبرنا إلى باراجواي بسبب ملاحقة العسكر لنا هنا، رغبة منهم في طرد الصيادين بتهمة التسكع، وفق ما كان يقال.

أطرقنا بينما غفا الكلبان عند قدمَيْه. سألني «خوردان»:

ـ في أي عام توفي والدك؟

ـ عام ١٩٩٠.

ـ وكم كان عمره؟

ـ واحدًا وثمانين عامًا.

ـ تصوَّر! تعرفنا إلى بعضنا بعضًا صبيَّيْن.

ـ وحين عمل معك «سالباتييرًا»، ماذا كانت طبيعة العمل؟

ـ كنا نقضي «مصالح».

ـ «مصالح»؟

فقال من دون أن يضحك:

ـ أجل. كنت أمتلك صندلًا أستخدمه في نقل الجير من محجر «بِرتي»، أو الجلود من مدبغة «بِلوفو»، أو الأصواف. أيًّا كان.

fb/mashro3pdf

ـ آه، حقًّا؟

ـ أجل... هل تود الدخول لتناول قدح من المتَّة؟

ـ كلا، أشكرك يا سيدي، فلديَّ مشاغل أخرى.

ثم ودَّعته.

قُدت دراجتي صوب النهر عبر طرق ترابية، بين قنوات صرف وصفوف من البيوت المنخفضة، أناور آبارًا، بينما الزجاجة معلقة بالمقود، تقرع ماسورة الدراجة. كانت المنطقة تعاني الإهمال والتدهور، لم يبدُ أن بها بيوتًا جديدة. لم يمر أحد من هناك. استلقت الكلاب نائمة في منتصف الشارع. مررت عبر متنزه «أورتيس»، حيث كنا نلعب كرة القدم. كانت الصفصافة المائلة، والتي اعتاد «سالباتييرًا» أن يجلس تحتها حين يأتي لمشاهدتنا ونحن نلعب، لا تزال قائمة في مكانها. اختفت الطرقات وأحواض الزهور، وبقيت الحشائش بلا تشذيب، كانت الأرض بورًا. أخذ مهر صغير كستنائي اللون يحكُّ عنقه في قائم المرمى.

fb/mashro3pdf

٢٤

انتهى الهولندي و«ألدو» من مسح ما يقرب من نصف القماش ضوئيًا. أوضح لي الهولندي أنه قد أرسل بعض الصور الرقمية إلى المتحف عبر البريد الإلكتروني، وأن لديه أخبارًا سارة: المتحف اتخذ قراره بشراء العمل كاملًا. وعلى عكس ما توقعت، أحزنني الخبر بشدة. فلن يعود العمل يخصنا. كان ينبغي علينا البدء في استخراج الأوراق اللازمة لنقله خارج البلاد. ولحين الانتهاء من ذلك، كان ينبغي على «بوريس» مواصلة عملية الرقمنة. وعلى الرغم من إمكانية الانتهاء من هذا العمل في هولندا عند وصول اللوحة إلى هناك، فقد صدرت تعليمات إلى «بوريس» بمواصلة العمل. إذ كان الغرض نسخ أكبر قدر ممكن قبل عودتهما، نظرًا لقيام المتحف بتنظيم معرض لرسامين من أمريكا اللاتينية في إطار بينالي فني. لم يكن

fb/mashro3pdf

أمامهما الكثير. فقد كان «بوريس» و«ألدو» يستطيعان مسح مائتين وأربعين مترًا من اللوحة يوميًّا، أي ما يقرب من أربع لفائف، بالعمل ورديتين، مدة كل منهما خمس ساعات. وفقًا لحساباتنا، كان أمامهما ما يزيد على أسبوع بقليل للانتهاء من العمل. ولكن ربما استطعنا نقل اللوحة قبل ذلك.

تحدثت إلى «لويس». كان ينبغي التأكد من مسألة الرسوم الجمركية، والتحقق من خضوع الأعمال الفنية للضرائب، وربما التقدم بطلب بعض التصاريح. أخبرني أنه سيتولى الأمر. وسألني:

ـ هل عثرت على اللفافة المفقودة؟

فأجبته:

ـ كلَّا، ولكنني أعرف الآن من يحتفظ بها.

fb/mashro3pdf

٢٥

ذهبت صوب الساحل في المساء، عاقدًا العزم على البحث عن «إيبانييس». كنت مضطرًّا للسؤال عنه بالاسم، أو السؤال عن «صياد أسود». لم أكن أذكر ملامح وجهه. فضلًا عن ذلك، لا بد أنه قد طعن في السن، وتغير أكثر مما يسمح لي بالتعرف عليه. قال لي «خوردان» أن أبحث عنه في منطقة ملاعب كرة «البوتشي»، فاتجهت صوب تلك الناحية. تركت مياه الفيضان آثارًا متباينة على البيوت، بعضها عند منتصف النوافذ. اتخذت طريقًا مفروشة بالحصى مبتعدًا صوب الشمال.

كان يومًا من أوائل أيام الربيع، خاليًا من البرودة على الرغم من رطوبته. في الطريق اصطفت نفس أكشاك بيع الطُّعم كما جرت العادة، حيث علقت لافتات تقول

fb/mashro3pdf

«يرقات، ثعابين ماء، ديدان»، وأكياس شفافة امتلأت بالمياه يسبح بداخلها عدد من أسماك الأبراميس.

سبقني شابان يعتمر كل منهما قبعة بدراجتيهما. علق أحدهما على مقود دراجته قفصًا به طائر كاردينال. أما الآخر فقد علق صنارة وسمكتين ضخمتين بهيكل الدراجة. سألتهما إذا كان الصيد وفيرًا. فأجابا بارتياب:

ـ بل قليل.

ـ هل جئتما من منتجع «بيليس»؟

ـ كلَّا. من المَرْسى.

فسألتهما وأنا أضغط المكابح، وقد تقطعت أنفاسي، بينما كانا يبتعدان بالفعل:

ـ ألم تريا صيادًا عجوزًا في تلك الأنحاء؟

ضغط الشابان مكابح دراجتَيْهما ثم نظرا إليَّ من فوق كتفيهما. فأضفت:

ـ أحد أولئك المسنين ممن يعيشون على الساحل... أليس هناك أحد عند المَرْسى؟

ـ كلَّا. هناك البعض عند «لوس إيتاليانوس».

شكرتهما ثم واصلا طريقهما أسرع مني بكثير.

fb/mashro3pdf

كان الهواء الشديد الصادر عن السيارات عند مرورها يهز مقود الدراجة. رأيت صنبورًا عند مدخل إحدى ورش الإطارات فتوقفت لشرب الماء. كان بناء مربعًا، عبارة عن مكعب من الإسمنت، وليس وراءه سوى الحقول، والحشائش. جلس شابان وسيدة على كراسي بحر عند الباب يحتسون المتَّة. أومأت إليهم سائلًا إذا كان بإمكاني استخدام الصنبور فردوا بالإيجاب. كان الشابان يطعمان أحد صغار كلب الماء كسرات من الكعك. بللت رأسي وعنقي ووجهي بالمياه. رأيت بعض الجلود معلقة فوق السياج المصنوع من السلك، فاقتربت منهم مفترضًا وجود صياد كلاب ماء ممن يتاجرون بجلودها.

ـ مساء الخير.

فردوا التحية:

ـ مساء الخير.

ـ هل تعرفون إذا كان يعيش هنا، ناحية الساحل، رجل يُدعى «فيرمين إيبانييس»؟

ـ كلَّا، على حد علمي...

ـ هل تعرفون أي شخص على الإطلاق، في تلك الأنحاء، لقب عائلته «إيبانييس»؟

fb/mashro3pdf

فأجابتني السيدة:

ـ كلَّا، «إيبانييس»، كلَّا.

ثم سحقت ناموسة على ساعدها.

طالعني الشابان بفضول.

على مقربة كان ثمَّة هيكل أزرق سماوي لسيارة فيات ٦٠٠، يُستخدم كحظيرة دجاج. وثياب معلقة على حبل. لا أحواض، ولا أزهار، ولا نباتات. وحدها القمامة بين الحشائش الطويلة.

ابتعدتُ. وبينما أخذ ينال مني الإنهاك، بدأت أسأل نفسي ماذا أفعل، وإن كنت حقًّا أفكر أنني سأعثر على ما أبحث عنه. لوحة سرقها منذ أربعين عامًا رجل من المؤكد أنه قد أشعل فيها النيران أو ألقى بها في قاع النهر.

حدتُ عن طريق الحصى في اتجاه الساحل. كانت الطريق تنحدر انحدارًا خفيفًا مما ساعدني على الاستمرار، على الرغم من شكوكي. كان ملعب كرة «البوتشي» خاليًا من الناس، والكراسي البلاستيكية والطاولات مكومة في أحد الأركان، والكشك مغلقًا.

fb/mashro3pdf

٢٦

وصلت إلى المنطقة المسماة بـ«لوس إيتاليانوس»، وهي عبارة عن أراضٍ بور سبق استخدامها كمزارع ألبان، ثم حظائر أغنام، أما الآن فقد أصبحت مخيمًا. امتد الشارع تحت ظلال أجمة الكافور. رأيت مزارع ماشية جديدة لم تكن هناك من قبل، وأكواخًا من الصفيح، ومساكن مرقعة. كانت قد أقيمت منطقة عشوائية هنا في الأعوام الأخيرة.

من خلف شجرة، برز فتى مصوِّبًا مسدسه نحوي ثم أطلق عليَّ النار. انحنيت متأخرًا، بعد سماع دوي إطلاق النار، وفقدت السيطرة على الدراجة. سقطت على رأسي فوق العشب النامي على حافة قناة الصرف. سمعت ضحكات. ركض عدد من الفتيان هربًا، كانوا مختبئين خلف الأشجار. صِحْت بهم. تفحصت

fb/mashro3pdf

جسدي، لم يكن به شيء، سوى خدش بالركبة. قمت. فتاة شابة، كانت تسير حاملة طستًا يميل إلى اللون البرتقالي امتلأ عن آخره بالثياب، رأتني أتلفت حولي مذعورًا، فقالت:

ـ ليست سوى طلقات صوت.

شكرتها ولم أستطع رفع بصري عنها. كانت آية في الجمال، سارت مبتعدة وسط العشب والحصى، بصندل وثوب أزرق سماوي وشعر نديٍّ. التفتَتْ للحظة. أود لو أقول إنها ابتسمت لي، ولكن كلَّا.

ذهبَتْ لا أكثر، أما أنا فواصلت المسير، ولم أركب الدراجة.

كنت آخذًا في التوغل أكثر فأكثر داخل تلك العشوائيات الجديدة، فحدت عنها عبر طريق ترابية تتجه نزولًا إلى النهر. وفي الحال ظهرت المياه العكرة بين الأشجار، رملية اللون، تصل إلى الضفة المقابلة، على الجانب الأوروجواني، الذي بدا لي دائمًا شديد البعد وصعب البلوغ.

كان ثمَّة درب على الساحل يمتد بحذاء المنحدر. التقيت بعدد من الرجال يصطادون باستخدام الصنانير. تناثرت

fb/mashro3pdf

عند أقدامهم دجاجات ممزقة إربًا، كانوا قد انتزعوا أحشاءها لاستخدامها كطعم. تكوم الذباب فوق اللحم الميت، فوق الدلاء والأحذية المطاطية. سألتهم عما إذا كانوا يعرفون شخصًا يُدعى «إيبانييس»، صيادًا أسود. لم يكونوا على معرفة به.

وصلت إلى مكان به سبورة كتب عليها «لدينا ببغاوات»، ثم أخرى في موضع لاحق كتب عليها «الطائر للمشويات». لم أفهم سواء أكانت الببغاوات تباع حية أم مطهوة. بعد ذلك وصلت إلى كشك من الصفيح، حيث سارع شَوَّاء نحيل بإضافة الفحم لشيٍّ عدة نقانق. حييته وجلست طلبًا للراحة ثم تناولت شطيرة نقانق وقدحًا من النبيذ.

لأتجاذب معه أطراف الحديث سألته منذ متى ومنطقة «لوس إيتاليانوس» مأهولة بالسكان. فأجاب سائلًا:

ـ العشوائيات؟

ـ أجل.

ـ منذ ما يقرب من عامين أو ثلاثة.

ثم أضاف ظنًّا منه أنني من العاصمة:

fb/mashro3pdf

ـ الآن في «بارَّانكاليس»، من لم يكن موظفًا حكوميًّا فهو من سكان العشوائيات.

ـ وماذا عن البلدية؟ ألا تقدم أي نوع من أنواع المساعدة؟

ـ أي مساعدة...! إن أولئك اللصوص يختلسون حتى التبرعات من المراتب والثياب.

ثم سألته عن «إيبانييس». توقف عن مسح الفاترينة لوهلة ثم قال:

ـ «إيبانييس»؟ هناك من يُدعى «إيبانييس»، ولكن على الجانب الأوروجواني.

ـ «فيرمين إيبانييس»؟

فأجابني قائلًا:

ـ أجل. لست متأكدًا من الاسم الأول. ولكنه صياد لقب عائلته «إيبانييس».

ـ أهو أسود؟

ـ أجل... بل بالأحرى خلاسي.

ـ أهو هناك على الجانب المقابل؟

ـ أجل، في مكان منعزل بعض الشيء، قبل «بايساندو» بقليل.

fb/mashro3pdf

ـ وماذا أفعل كي أعبر إلى الجانب الآخر؟

ـ عند «خيرباسوني»، بعد مستودع الأخشاب، هناك عبَّارة تنقل السيارات.

ـ ظننتها لم تعد تعبر...

ـ أجل، ولكنها عادت إلى العمل الآن، فالناس لا يملكون النقود اللازمة للذهاب بالسيارة عبر الجسر نظرًا لأسعار النفط ورسم عبور الطريق.

ـ في أي ساعة تقوم العبَّارة؟

ـ آ... في الخامسة تقريبًا.

سرتُ إلى أن بلغت «خيرباسوني»، بحذاء النهر دائمًا. لم يكن ثمَّة أحد عند المَرْسى. كان الوقت لا يزال مبكرًا. من دون أن أبتعد أكثر مما ينبغي، ذهبت إلى الجبل ثم استلقيت تحت ظلال شجرة مُران، بجوار الدراجة. أعتقد أنني لم أستغرق وقتًا طويلًا قبل أن أغفو.

استيقظت بعد ساعة، أتطلع إلى جذع الشجرة، لا أذكر ذاتي. شعرت بأنني داخل واحدة من تلك الحزم فارعة الطول من الأغصان التي طالما أحب «سالباتييرًا» رسمها: الفضاء الخالص بين الأشجار، الجبل الكثيف،

fb/mashro3pdf

بينما تختبئ الطيور، تركيبة تكاد تكون تجريدية، كثيرًا ما استخدمها كمساحة انتقالية بين المشاهد، وكأن عين المُشاهد في نزهة على ارتفاع الطيور المحلِّقة فوق الجبل الذي امتلأ بظلال تناثر فوقها رذاذ النور، وبأمكنة سرية، حميمية، حيث لا وجود للبشر، حيث تنظر العين وكأنها تحلِّق، فلا تمس الأرض، تثب من شجرة إلى أخرى، منعزلة، وقد ركنت إلى أمان العلو، في كثافة جبل الشجيرات الشوكية، والخروب، والدردار، والحمرية المزهرة، بين طيور صغيرة كصائد الذباب الأحمر، وقبرة كلاندرا، ونقار الخشب ذي الرأس الأصفر، والسُّمنة، والببغاوات.

استقمت في مجلسي قليلًا فرأيت عبَّارة صدئة ترسو. جاءت خاوية تقريبًا. بعد أن راجع مفتش جمركي الأوراق، نزلت سيارة ودراجتان بخاريتان، وأنزل بعض الرجال صناديق خشبية. اقتربت سائلًا الشخص الذي بدا لي أنه المسؤول عما إذا كان سيعبر إلى الجانب الآخر. فأخبرني أنه من الممكن، في حال تجمعت بعض السيارات. انتظرت طويلًا، جالسًا عند المرسى، أطالع الحركة الشحيحة. كانت الأمواج الواهنة العكرة

fb/mashro3pdf

ترتطم بقوائم المَرْسى، فتتمايل القمامة الطافية فوق سطح الماء.

سبق أن عبرت إلى الجانب الآخر بضع مرات مع أسرتي بأكملها لقضاء الإجازة في «لا بالوما» بأوروجواي. عند وفاة جدي، أنفق «سالباتيرًا» شطرًا من الميراث على العطلتين أو الثلاث عطلات الصيفية التي قضيناها على البحر. كنا نستأجر بيتًا بالقرب من الشاطئ، في حين يأخذ «سالباتيرًا» مقاطع من القماش الأبيض كي يرسمها في الشرفة. وبعودته كان يضيفها إلى اللفافة الأخيرة. كنا نعبر بواسطة زورق يتركنا في «فراي بنتوس»، ومن هناك نسافر بالقطار إلى أن نبلغ «لا بالوما»، بحيث نتوقف في طريقنا إلى هناك في «مونتيفيديو». كانت الإجازة، بالنسبة لي، تبدأ في ذلك الزورق.

بعد ساعتين من الانتظار على مَرْسى «خيرباسوني»، شعرت بالتعب. بدا لي النهر أوسع مما ينبغي، كما لو كنت مضطرًّا لعبوره سباحةً. لم أكن أعرف ماذا سأفعل كي أبحث عن صياد قيل إنه يعيش على الضفة الأخرى، بدراجتي. في النهاية لم تظهر سيارة واحدة، فلم تقطع العبَّارة النهر إلى الجانب الآخر. استطعت العودة وقد تمكن مني الشعور بالهزيمة على يد مصاعب لا سبيل

fb/mashro3pdf

إلى تجاوزها، وليس لضعف من جانبي. فكرت أن هكذا أفضل. عند وصول أخي، يمكننا الذهاب بسيارته عبر الجسر الدولي.

fb/mashro3pdf

٢٧

في الطريق رأيت واحدة من تلك السماوات التي كان يرسمها «ساليناتيرًا». واحدة من تلك السماوات السحيقة، المتقلقلة، الجبارة. أحيانًا كان يصنع سحبًا متناثرة تتضاءل صوب الأفق، على نحو يستطيع معه إظهار البعد الحقيقي للسماء. كان يخلق مساحات جوية شاسعة تصيب بالدوار. وكأن المرء قد يهوي داخل القماش. كنت أعرف ـ تعلمت ـ أي نوع من السماوات يسترعي اهتمامه، وفي بعض الأمسيات، عند عودتي من المدرسة إلى المخزن، كنت أقول له:

ـ هناك سماء جميلة بالخارج.

ثم نخرج لمشاهدتها. وهو شيء ما زلت أفعله، بلا وعي مني، على الرغم من وفاة «ساليناتيرًا» منذ أعوام طوال. وفعلته ذاك المساء فيما أحرك دواستَي

fb/mashro3pdf

الدراجة ببطء عائدًا أدراجي إلى «بارَّانكاليس»: رأيت السماء العملاقة، سماء كالسهول، زُرقة كثيفة، وسُحبًا كالجبال، كالأقاليم، وفي صمت طلبت من «سالباتييرَّا» أن نخرج للمشاهدة.

مرات كثيرة يحدث لي أن أعرف، حين يقع بصري على شيء، كيف كان ليرسمه. أرى تينًا على صينية وأتصور كيف كان ليرسمه «سالباتييرَّا». أرى شجرة كافور شبه رمادية مائلة إلى الزرقة، فأراها وكأن «سالباتييرَّا» قد رسمها بنفسه. أو الأشخاص (عادة ما يحدث لي هذا خلال اللقاءات بعد احتساء بضع كؤوس من النبيذ)، إذ أرى الأشخاص زيتية لوهلة، بألوان صارخة، ووجوه حمراء أو صفراء، وضحكات صاخبة تكعيبية، أو إيماءة كان «سالباتييرَّا» ليجمدها، انحناءة رأس، وضع ساق على ساق، جلسة.

ربما بدا أن تلك هي نظرتي الفنية الخاصة التي لم أتحمس لتطويرها. غير أنني لم أشعر برغبة في الرسم قط. فدائمًا ما شعرت بأنه ليس من شيء إلا ورسمه «سالباتييرَّا». أذكر أنني أطلعته وأنا في العاشرة من عمري على خربشة من صنعي لغواصات وصواريخ. كنت فخورًا بالنتيجة. بعد أسبوع دخلت إلى

fb/mashro3pdf

المخزن فوجدتهما مرسومَيْن على القماش، الغواصة والصاروخ وقد تضخما وكثرت ألوانهما، فلم أشعر بأنه نقلهما عني، بل بأنني أنا الذي نقلتهما عنه من دون علم مني بذلك.

في مراهقتي كنت أحلم عادةً بامرأة حلوة عارية بين ذراعَيَّ. فكنت أعانقها بقوة خشية أن تتحول إلى شيء آخر. إلا أنني كنت أعتصرها بقوة إلى الحد الذي تلين معه، وتسيل ألوانًا. كنت أربت على ذراعها فتلطخ بشرتها، ليبدو تحتها لون أزرق دبق. حينئذ كنت أفلتها، فتذوب شيئًا فشيئًا، أما أنا فيتملكني اليأس، مذعورًا، كنت أمسحها بالملاءة وكأنني أقتلها، وكأنني أفتش عنها، حتى تصبح مستوية، مستحيلة، آية في الجمال، مرسومة على القماش إلى الأبد.

كان العثور على المقطع المفقود أمرًا أحتاج إلى القيام به كي لا تظل اللوحة بلا نهاية. في حال نقصت لفافة، لن أستطيع رؤية اللوحة كاملة، التعرف عليها كاملة، وسيظل ثمَّة مجهول، أشياء ربما رسمها «سالباتييرًا» بدون علم مني. ولكن إذا وجدتها، فسوف يكون ثمَّة حد لذلك العالم من الصور، فتَحدُّ اللانهائية تخومٌ، وأتمكن من العثور على شيء ليس من رسمه. شيء يخصني.

fb/mashro3pdf

ولكنها تفسيرات أدلي بها الآن. وحده هاجس العثور على لفافة القماش تملكني تلك الأيام، فلم أكن أفكر في هذه الأشياء.

fb/mashro3pdf

٢٨

وصلت إلى المخزن مرتبكًا. كان «بوريس» و«ألدو» قد غادرا. فتحت زجاجة الويسكي التي اشتريتها لـ«خوردان». رشفت بضع رشفات ثم شرعت أنقب في الأرفف والصناديق. وجدت رسمة يابانية كان دكتور «دابيلا» قد أهداها إلى «سالباتيرًّا». كانت عبارة عن رسمة طويلة ملفوفة، حيث تتصل المشاهد، كل مشهد بسابقه، ليحفز المشهد التالي بدوره على نحو تدريجي. وهو الشيء الذي استرعى اهتمام «سالباتيرًّا» بلا أدنى شك.

وجدت فُرشًا صنعها أبي، باستخدام شعور شتى أنواع الحيوانات. فلرسم الخطوط الأكثر كثافة، فُرش من شعر ذيل الحصان الذي كنا نحصل عليه من مزادات الخيول المتقدمة في السن حيث كانت تباع أكياس الهُلب بالكيلو. ولرسم الخطوط المتوسطة، فُرش من شعر أذن البقرة

fb/mashro3pdf

الداخلي الذي كنا نحصل عليه من مجزر «لورنسو» أيام الثلاثاء، عند نحر الذبائح. ولرسم الخطوط الخفيفة، فُرش من شعر كلب الماء الذي كان يجلبه صياد عجوز يدعى «سيفيرينو إيرناندیس»، ممن يصطادون كلاب الماء ويتاجرون بجلودها، مقابل زجاجة نبيذ أحمر من صنف «ترينساس دي أورو». أما بالنسبة للخطوط الأخف، لرسم الشعر والعشب وبيوت العنكبوت، ففُرش من شعر قطط سوداء كنتُ وفتيان الحي نقذفها بالحجارة من حين إلى آخر، أو من ريشات دقيقة نلملمها من على أرضية قفص الكناري أو الكاردينال أو الهجين الذي يحتفظ به «لويس» في الفناء. كما كان «سالباتيرًا» يصنع مقبض الفرشاة باستخدام قطعة من ساق البوص، فيجمع الشعر داخل مخروط حتى يتخذ ذلك الشكل، ثم يقص الطرف الآخر بعناية، وبمجرد ربط الشعر ولصقه، كان يضعه داخل ساق البوص. هكذا كان يصنع فُرشه.

جاء «ألدو» ليغلق المخزن. طلبت منه مساعدتي في إنزال بعض اللفائف. سألته كم عامًا بالتحديد عمل مع أبي وخلصتُ إلى أن عدد الأعوام التي عمل خلالها «سالباتيرًا» وحيدًا، بلا مساعدة، عشرة. أنزلنا بضع لفائف تعود إلى تلك الفترة، وأخرى لاحقة تعود إلى

fb/mashro3pdf

عام ١٩٨٠. عندما انصرف «ألدو»، طالعت لبعض الوقت لفافة كرسها «سالباتيرًا» بالكامل لفصول السنة. لم يكن ثمَّة أشخاص. فما كانت تُرى سوى بعض الأشكال الدقيقة تمر في خلفية المنظر من حين إلى آخر، بينما المساحات آخذة في التقلب، من ضوء قيلولة الصيف الأبيض إلى وابل أمطار أبريل، ومن الحقول المغمورة بالمياه شتاءً إلى الأشجار المكسوة عن آخرها بأوراق جديدة تكاد تكون فسفورية. ما لم أكن مخطئًا، فقد رسمها عامَ أُطيح بالرئيس «فروندیسي». كان «سالباتيرًا»، حين تخذله السياسة ـ أو الإنسانية بوجه عام ـ يرسم تلك المناظر الخاوية، وكأنه يريد أن ينأى بنفسه إلى مكان تقتصر فيه الروابط بالكاد على تحية من بعيد.

لفافة أخرى، لم أكن قد رأيتها قط، بدأت مشاهدها بقطار. في العربة الأخيرة، جلس مراهق نحيل شجي يتطلع عبر النافذة. هل كنت أنا؟ كان يشبهني كثيرًا. بابتسامة منفعلة، كان الفتى يودع أحدهم. أجل، كنت أنا. تعرفت على نفسي وكأنها صورة عتيقة لم أعرف أنها قد التقطت لي. هكذا رسمني كما رآني صباح يوم رافقني إلى المحطة مع أمي. رأيت في موضع لاحق باللوحة الحشائش والعجلات ملطخة بفعل حركة القطار، أما أنا فأظهر في باقي نوافذ

fb/mashro3pdf

العربة أيضًا. إذ أبدو في إحداها وأنا أتناول شطيرة. وفي أخرى نائمًا، وقد أسندت رأسي إلى الزجاج، وثمَّة فتاة عارية في المقعد المقابل، كأنه الحلم الذي كان يساورني. تأثرت لكون «سالباتييرًا» قد فكر بي إلى هذا الحد. تأثرت لرؤية ذاتي عبر عينيه، فقد كان مدى الألم الذي شعر به من جراء رحيلي جليًّا. أحسست به يحدثني من خلال لوحته، أحسست بأنه قد غلب الصمت الهائل القائم بيننا. ويحدثني الآن بالحب الذي غمر به لوحته، قائلًا أشياء لم يستطع قولها يومًا من قبل.

احتسيت قليلًا من الـ«تشيفاز»، لا أعرف كم كأسًا، فقد كنت أحتسي من الزجاجة مباشرة. أكثر قليلًا. ماذا جرى خلال تلك الأعوام؟ في بادئ الأمر ذهب «لويس» إلى بوينوس آيرس، ثم تبعتُه بعد وقت قصير. كان يفترض بي أن أذهب للدراسة، ولكنني أردت الهرب من «بارَّانكاليس»، من البيت، ولا سيما من اللوحة، من بؤرة جذب اللوحة التي أحسست بأنها ستبتلعني إلى الأبد كخادم مذبح سينتهي به المطاف كاهنًا في ذلك المعبد العظيم من الصور والمهام اللانهائية التي يستدعيها كلٌّ من القماش، والبكرات، والألوان... رسم «سالباتييرًا» هروبي، كرغبة منه في حمايتي، إذ تتحول نوافذ القطار

fb/mashro3pdf

لاحقًا إلى نوافذ بناية الكلية، وهناك كنتُ من جديد، ابنه الأصغر، ذاهلًا وسط بقية الطلاب، وسرب من الببغاوات يرفرف محلقًا فوق رأسي. ثم أظهرُ و«لويس» في نافذة أخرى، جالسَين إلى الطاولة بغرفة النُّزل الخاصة بنا، فيبدو «لويس» مسرورًا، يصب قدحًا مما بدا أنه بيرة، أما أنا فأدخن. كيف عرف «سالباتييرًا» أنني كنت قد بدأت أدخن؟ ببساطة تخيل الأمر، فرسم ابنه وقد أفلت من بين يديه، ويأتي أشياء خارجة عن سيطرته. هناك كانت النظرة التي شملني أنا وأخي بها، راجيًا لنا حياة سهلة، حياة طلاب، بلا أخطار. أعتقد أنه كان مُلمًّا بما يجري في الجامعة إبان تلك الفترة نظرًا لاستماعه إلى الراديو. لعله كان قلقًا بشأن «لويس» على وجه الخصوص، لمعرفته بمغازلة الأخير للتيار «البيروني». كان أبي يعرف بسبب إشارتي إليه بوصفه «أخي البيروني» (إلى أن أصبح أمرًا محفوفًا بالمخاطر). غير أن «لويس» لم يكن صاحب قناعة سياسية راسخة، بل بالأحرى نشط سياسيًّا بضعة أعوام كي يميز نفسه عن ميل أبي إلى حركة «فروندیسي» وليحظى بقبول مجموعة من الأصدقاء في العاصمة. ثم نأى بنفسه عن الحركة إلى حد كبير قبل حلول الأعوام الأكثر عنفًا.

fb/mashro3pdf

نزولًا على طلب «سالباتيرًا»، كانت أمي تتصل بكل منا على التوالي عبر الهاتف للسؤال عن حالنا:

ـ أبوك يسأل: متى تجيئان لزيارتنا؟

كنا نترك الشهور تمر فلا نعود، إلى أن تحين العطلة فنسافر معًا لقضاء عيد الميلاد برفقتهما. ولكن كلينا كان يعرف أننا سوف نبقى للعيش في بوينوس آيرس، وتواطأنا على ذلك الضرب من ضروب الخيانة.

كان الوقت قد تأخر. مدَّني الويسكي على معدة خاوية بشجاعة بلا داعٍ، وبقليل من الخرق، مما حثني على بسط لفافة أخيرة قبل ذهابي. كانت من الثمانينيات. في بادئ الأمر رأيت مقاطع تصور ضفاف نهر رملية وكلابًا سلوقية هزيلة وسط أشجار الصفصاف. ثم وجدت بورتريه رسمه «سالباتيرًا» لزوجتي السابقة «سيلبيا» وابني «جاستون» خلال إحدى العطلات التي قضيناها في «بارَّانكاليس». رسم كلًّا منهما. أما أنا فلم أكن هناك. وكأننا قد افترقنا بالفعل. «سيلبيا»، جالسة، تشيح بنظرها إلى اليمين، أما ابني «جاستون»، في السادسة أو السابعة من العمر، فيقف متكئًا على أمه، ناظرًا إلى الأمام. أشعرتني عيناه برهبة. كان «سالباتيرًا» يرسم العيون وكأنها على وشك أن ترمش. في عينَي ابني ارتسمت نظرة شفافة، يشوبها

fb/mashro3pdf

قليل من الألم. وكأنه يسائلني لماذا حدث كل ما حدث. الافتراق والطلاق والمرور لاصطحابه صباح كل سبت إلى غابات «بالميرو». اضطررت للجلوس.

ظللت شارد الذهن، أتطلع. بعد ذلك البورتريه بقليل افترقت عن «سيلبيا». كان كلاهما هناك. زوجتي وابني. وكأنني عثرت عليهما حيث تركتهما. وكأنهما بقيا هناك في انتظاري، ساكنَيْن في عتمة القماش لعشرة أعوام. كنت أعرف أن شطرًا من الذنب يقع على عاتق «سيلبيا»، ولكن ها هو «ساليناتيرًا» يطلعني على ما ضاع مني. صعب عليَّ النظر. فقد استطاع أبي الإمساك بما انسل من بين يديَّ.

fb/mashro3pdf

٢٩

كانت السماء قد أظلمت عند خروجي من المخزن عائدًا إلى البيت بالدراجة. ظهرت بعض النجوم، في حين هبت الرياح باردة. مضيت في طريقي أخمن مواضع الآبار والركام، محاولًا مناورتها. قبل وصولي بمربعَين سكنيَّين، سمعت صوت سيارة تسرع من خلفي. أردت أن أنظر إليها فأغشتني كشافاتها. شعرت بها آتية صوبي، ثم حاصرتني وكأنها ستدهسني. راوغت بقدر استطاعتي، اقتربت من الرصيف واضعًا قدمي على الأرض، مذعورًا. توقفت السيارة على بعد أمتار. كان بداخلها شخصان. وكانت ذراع الجالس في المقعد المجاور للسائق ممدودة خارج النافذة. صاح بي من دون أن ينظر إليَّ:

ـ بِع هذا الشيء اللعين وكفى!

ثم انطلقت السيارة تثير الرمال في الهواء.

fb/mashro3pdf

لم أستطع تبين وجهَيْهما. خرج بعض الجيران بدافع الفضول مستفهمين مني عما جرى. لم أعرف ماذا أقول لهم: سوء تفاهم أم محاولة لقتلي. حقيقةً لم أكن متأكدًا.

بدلًا من الذهاب إلى البيت قصدت كابينة الهاتف واتصلت بـ«لويس». عندما حكيت له ما جرى أخبرني أن عصابة «بالدوني» مالك السوبرماركت وراء ما حدث على الأرجح. ثم أضاف:

ـ قرصة أُذُن حتى نبيع.

بدا لي متأكدًا إلى حد كبير. كما بدا لي من غير المعقول أن تكون تلك حقيقة ما جرى. قال لي «لويس» أن أبلغ الشرطة إذا كان هذا سيطمئنني. ثم أضاف مقللًا من أهمية الأمر:

ـ «ميجيل»، لن يقتلنا أحد من أجل مخزن.

كان من السهل عليه أن يقول ما قال عن بعد. بعد ذلك أخبرني أن استخراج الأوراق اللازمة لنقل العمل خارج البلاد لا يسير على ما يرام. كان قد تحدث إلى محامٍ بسبب الصعوبة التي واجهته عند اتخاذه أول الإجراءات. إذ تقدم «لويس» بطلب إلى «اللجنة القومية المعنية بالتراث التاريخي والفني» لنقل العمل إلى الخارج. ولكن اللجنة

fb/mashro3pdf

اكتشفت أن لوحة «سالباتييرًا» قد أعلنت منذ بضع سنوات «تراثًا ثقافيًا للمقاطعة»، وبناء عليه لم يكن من الممكن بيعها أو نقلها إلى بلد آخر. وبالأخذ في الاعتبار أن المقاطعة لم تفعل شيئًا من أجل اللوحة، كان يحق لنا اللجوء للقضاء والتقدم بطلب نزع ملكية. إلا أن الأمر قد يستغرق عدة سنوات. لم أستطع تصديق ما سمعت. قال لي «لويس»:

ـ لا تقل للهولنديين شيئًا في الوقت الحاضر.

ذهبت إلى البيت، لم أعد مذعورًا، بل حانقًا، بسبب وقوف البيروقراطية في سبيل فرصتنا للتعريف بعمل «سالباتييرًا»، بسبب تحريض «بالدوني» على ترويعي حتى أبيعه المخزن... رأيت التلفزيون مفتوحًا في ركن من أركان حانة آل «دورست»، فدلفت إليها لأحتسي زجاجة من البيرة وأشتت ذهني حينًا. كنت في حاجة إلى قليل من الضوضاء.

fb/mashro3pdf

٣٠

في الصباح ذهبت إلى السوبرماركت لمقابلة «بالدوني» في مكتبه. فقال لي:

ـ ماذا تقول إنني فعلت؟

أبدى شعوره الشديد بالإهانة عندما أوضحت له ما جرى. أنكر إنكارًا باتًّا. قال إن القيام بفعل كهذا ليس أسلوبه. وإنه ربما كان في عجلة لشراء قطعة الأرض إلا أنه لن يرسل جماعته أبدًا لاستعجال أي شخص كان. فسألته، مشددًا على أنه بنفسه يقر بقبوله أن تكون له «جماعة»:

ـ وما نشاط جماعتك؟

ـ أنا مسؤول بمكتب الرعاية الاجتماعية، حيث نتولى توزيع التبرعات التي تصلنا. البعض ساخط عليَّ بشدة، ظنًّا منهم بأنني أحتفظ لنفسي بتلك الأشياء، ربما خلطوا بينك وبين أحد أعضاء فريقي...

fb/mashro3pdf

خرجت من هناك أشد حيرة من ذي قبل. ذهبت إلى المخزن حيث شاهدت «بوريس» و«ألدو» يعملان. كانا قد اكتسبا مهارة ميكانيكية، فكانا يبسطان القماش فوق الماسح الضوئي، ويجذب كلٌّ من جانبه بحركة مطابقة، كصورة منعكسة على مرآة، ثم يطويان الطرف الآخر بينما ينسخ الجهاز ذلك المقطع من اللوحة. عادت «هَنَّا» من «ميسيونيس» بمنحوتات خشبية على أشكال طيور وفهود وتماسيح أمريكية. وفقًا لما حكت، كان يبدو أن شلالات «إجوازو» قد أثرت في نفسها بأقوى مما فعلت الأطلال اليسوعية. كانت تحكي أشياء بمزيج من الإسبانية والهولندية، تتخللها بعض التوضيحات الموجهة إلى «بوريس».

قال لي «بوريس» إن المسؤولين بالمتحف يريدون معرفة كيف تسير إجراءات استخراج الأوراق اللازمة لنقل اللوحة خارج البلاد. كانوا يريدون معرفة متى يمكن نقلها نظرًا لضرورة الاستعانة بخدمة نقل متخصصة. لم أخبره بالمصاعب التي تواجهنا مع الجمارك. قلت له إن كل شيء سيكون على ما يرام عما قريب. فقال لي «بوريس» إنه سيواصل العمل حتى يوم السبت، والأرجح أنهما سينتهيان من عملية الرقمنة بحلول ذلك الوقت إذا سار العمل بالوتيرة نفسها ولن يعود لديه المزيد ليقوم

fb/mashro3pdf

به. قال إنه قد يعود إلى هولندا لحين الاستعداد لنقل العمل. سألته:

ـ السبت آخر يوم؟

فأجابني قائلًا:

ـ أجل. السبت. «ساترداي».

قبل رحيلهما، كنت أرغب في الذهاب للبحث عن «إيبانيس» على الضفة الأوروجوانية، كنت أرغب في العثور على اللفافة المفقودة.

يوم الجمعة، عند وصول «لويس»، قررنا إقامة حفل وداع بالبيت في الليلة التالية، نعد فيها الشواء مع كل من «ألدو» والهولنديين. لم نكن نعرف بعد ماذا سنخبرهم بشأن العقبات البيروقراطية. لم تكن المسألة يسيرة. فقد حاول «لويس» إقناع مسؤولي «اللجنة القومية المعنية بالتراث» بالتعقل، بلا جدوى. فلا يمكن التراجع عن إعلان عمل فني «تراثًا ثقافيًا» أو «ذا أهمية ثقافية». كان لا بد من اتباع الخطوات القانونية لنزع الملكية. كان ينبغي علينا نزع ملكية شيء لا يخصنا فحسب بل وقوبل بالرفض طوال سنوات من جانب الجهة صاحبة حقوق الملكية في الوقت الراهن بموجب القانون.

fb/mashro3pdf

تحدثنا لبعض الوقت في المطبخ. اقترحت أن نعبر إلى أوروجواي بحثًا عن «إيبانيس». في حين قال «لويس» إنه لا يملك أوراق السيارة اللازمة لعبور حدود ساحل أوروجواي، فضلًا عن أن مزاعمي بشأن مكان اللفافة سخيفة. قلت له إننا نستطيع العبور بواسطة زورق، بدون سيارة، بل ربما يكون البحث عن صياد في المياه أسهل منه على الأرض. فنعتني بالمجنون. أصغى أخي إلى أسبابي من دون أن ينظر إليَّ، فيما يدور في أنحاء المطبخ، ضاحكًا ضحكة استخفاف. أخذ يغسل الصحون. حكيت له ما قال «خوردان» والأشياء التي اكتشفتها بمشاهدة بعض اللفائف. كان «لويس» يريد إخراج عمل «سالباتيرًا» إلى النور، لا حياته. لو كان «سالباتيرًا» مهربًا، فهو يفضل ألا يعرف. كان يريد منهم أن يأخذوا العمل أخيرًا، إذ بدا أن الظل المعتم الذي كانت تلقي به كل تلك الحياة المطوية في المخزن يثقل عليه. قلت له منهيًا الحديث:

ـ إذا كنت لا تريد أن تأتي، فسأذهب وحدي غدًا.

ثم ذهبت إلى حجرتي. سمعته يدور في أرجاء البيت حينًا، ثم أخلدت إلى النوم.

fb/mashro3pdf

٣١

صحوت في وقت مبكر جدًّا، والسماء لا تزال معتمة. أخذت أشرب المتَّة في المطبخ، لم أكن أعرف ماذا سأفعل للعبور بواسطة الزورق إلى الجانب الآخر. كان ينبغي عليَّ أن أعود إلى «خيرباسوني» بالدراجة. على كلٍّ، كنت قد عقدت العزم على القيام بذلك. اغتسلت، ثم ارتديت آخر غيار نظيف متبقٍّ لديَّ وذهبت إلى الفناء لآخذ الدراجة. أقر بأنني أحدثت من الجلبة أكثر مما ينبغي قليلًا بقصد إزعاج أخي، لأنني كنت غاضبًا منه. وضعت بضع كعكات في حقيبة. بلغت الباب المطل على الشارع، وفيما أنا ذاهب، ظهر «لويس» أشعث الشعر، بدون نظارة، بالبيجامة. «موظف مكتب العدل بالبيجامة»، قلت لنفسي. لم أكن قد رأيت أخي بالبيجامة منذ عشرين عامًا على أقل تقدير. بادرني قائلًا:

fb/mashro3pdf

ـ انتظر.

بدَّل ثيابه، وتناول قدحًا من القهوة، ثم انطلقنا بسيارته. بالكاد كان الفجر قد لاح على ضفة النهر. قال لي «لويس»:

ـ اسمع، سنعبر بواسطة زورق. ولكن إذا لم نعثر على ذلك المدعو «إيبانيس» قبل الظهيرة، فسنعود.

فأجبته بقصد تهدئته:

ـ لا توجد مشكلة. علينا أن نعود بحلول المساء لإعداد الشواء.

قطعنا في عشر دقائق الطريق نفسها التي استغرقتُ ساعة لقطعها بالدراجة في اليوم السابق.

تركنا السيارة بالقرب من مكتب الجمارك وصعدنا سيرًا على الأقدام إلى زورق كان من المفترض أن يتحرك في السابعة، إلا أنه لم يتحرك حتى الثامنة والربع لانتظاره شحنة قادمة من «كونيبسيون». حصَّل المسؤول، الشخص نفسه الذي التقيته في اليوم السابق، عشرة «بيزو» عن كلينا. سألته عما إذا كان يعرف «إيبانيس» فقال إنه لم يلتقِ به منذ زمن، إلا أن من عادته التواجد في المنطقة المسماة بـ«إل دوراسنيُّو».

قبيل طلوع الشمس، اكتسى النهر بلون الذهب. كانت

fb/mashro3pdf

حركة المياه تجعل السطح يبدو كرقائق معدنية هائلة تمور بسرعات متباينة. استطعنا التحقق من قوة المياه حين بدأ الزورق في الابتعاد عن الضفة. نازَع المحرك مطلقًا فرقعات، في حين مال مقدم الزورق عكس اتجاه التيار، وعلى الرغم من ذلك فقد غلبَنا النهر، دافعًا إيانا جنوبًا.

رأينا مركبًا شراعيًّا يمر ثم زورق خفر السواحل يسير بسرعة شديدة، في حين برز جزء كبير من جسم الزورق خارج المياه.

ذهبنا إلى مقدم الزورق وجلسنا كتفًا إلى كتف في مواجهة الدرابزين. تذكر «لويس» بطولة كرة قدم شاركنا فيها في طفولتنا، حيث قابلنا فرقًا من «بايساندو»، على الجانب الآخر من النهر. كنا قد عبرنا بضع مرات بالقمصان الملونة على متن صندل يعمل بالسولار كان يبدو على وشك الغرق.

أطرقنا حينًا، نتطلع إلى تموجات المياه على جانبَي جسم الزورق. مررنا برجلين على متن قارب تجديف، كما مر بنا قارب بمحرك خارجي، على متنه عائلة مع المفروشات الخاصة بها. خطر لي «سالباتيرًا» وهو يعبر بالبضائع ليلًا مع «خوردان». لم يكن النهر بهذا القدر من الاتساع في

fb/mashro3pdf

نهاية المطاف، وهناك على الجانب الآخر كان ثمَّة بلد آخر، وقوانين أخرى. تشبثت بذراع «لويس» بغتةً:

ـ خطرت لي فكرة.

ـ ماذا؟

ـ لا يمكن نقل القماش من الأرجنتين؟

ـ آ... صحيح.

ـ ولكن يمكن نقله من أوروجواي...

نظر إليَّ «لويس».

ـ ماذا تعني؟

ـ نمرره إلى أوروجواي ومن هناك نرسله إلى هولندا.

ـ «نمرره»؟

ـ أجل. نمرره.

تبدلت تعابير وجه «لويس» ثم قال:

ـ لا بأس بذلك.

ضحكنا ونحن نفكر في الأمر.

دنت منحدرات ساحل أوروجواي حتى تبينا الأحجار الجيرية البيضاء، الركام الضخم المتداعي عند السفح،

fb/mashro3pdf

قريبًا من المياه. غادرنا الزورق في ميناء جديد لم نكن نعرفه. طلب منا مفتش جمركي من أوروجواي أوراقنا ثم نزلنا ونحن لا نعرف إلى أين نذهب.

دنا منا رجل عارضًا علينا سيارة أجرة. سألناه إذا كنا على مبعدة من «إل دوراسنيُّو» فقال لنا إنها تبعد خمس عشرة دقيقة. أخذَنا عبر طريق مفروشة بالحصى. كانت البيوت على الجانبين تنم عن أننا في بلد آخر، فكانت لها أحواض أنيقة تحوي أزهارًا ونباتات. استغرقنا أكثر من خمس عشرة دقيقة في الوصول. كانت «إل دوراسنيُّو» عبارة عن مجموعة من البيوت على حافة طريق تصب في النهر.

طلبنا إلى سائق سيارة الأجرة أن ينتظرنا ثم طرقنا باب حانة مغلقًا. خرجت امرأة تجفف يديها بمنشفة الصحون. سألناها عما إذا كانت تعرف أين يعيش «إيبانييس» فأخبرتنا أنه يعيش على الساحل، في أرض تابعة للبلدية حيث تُجمع الأحطاب، تقع بعد مزرعة «لوس لينارِس». اضطرت لأن تصف لنا كيف نصل لعدم معرفتنا بالمنطقة.

كان الذهاب عبر النهر أيسر، إلا أن أحدًا لم يستطع أن يقلنا. فتابعنا طريقنا برفقة سائق سيارة الأجرة. اتخذ طريقًا ترابية، بينما يتحدث عن السياسة، متطلعًا إلى

fb/mashro3pdf

مرآة الرؤية الخلفية ليرى ما إذا كنا سنجيبه. غير أننا لم نتجاوب معه. أطرقنا كالقتلة المأجورين. لم نكن نبدو خطرين ولكن مثيرين للقلق. ربما لهذا كان السائق يتحدث بلا توقف.

كانت الطريق رديئة إلى حد بعيد فأخذت السيارة تقفز بين آثار غائرة جافة. مررنا بمزرعة تدعى «لوس لانارِس» (ظننت أن السيدة قالت «لوس لينارِس»). بعد ذلك وجدنا مدخل طريق، إلا أنه كان مغلقًا بسلسلة ضعيفة. ترجلنا من السيارة. حاولنا التحقق من إمكانية رفع السلسلة حتى تمر السيارة من الأسفل، إلا أنه كان أمرًا مستحيلًا. اضطررنا للذهاب إلى الساحل سيرًا على الأقدام. لم يرِد سائق سيارة الأجرة انتظارنا. كان من الممكن تفهم عدم رغبته في الانتظار هناك، تحت أشعة الشمس. دفع له «لويس» مقابل الرحلة وأكثر بقليل مقدمًا، على أن يعود بعد ساعتين كي يقلنا من المكان نفسه.

تتبعنا المسار الأبيض، مرورًا بحقل من الشجيرات المتفرقة. لم تكن أحذيتنا تصلح للسير عبر الطرق الوعرة. إذ كان حذاء «لويس» أنيقًا، غطاه الغبار بعد حين، أما حذائي فمن الجلد الناعم بلا كعب. بدأ «لويس» يضطرب، فطلب مني التوقف قليلًا. جفف عرقه بالمنديل. مرت

fb/mashro3pdf

بضعة طيور أبو طيط، تكاد تمس رؤوسنا، حانقة علينا بسبب تعدينا. كانت الطيور على حق، فماذا نفعل هناك، في مكان أبعد ما يكون عنا، تحت أشعة تلك الشمس التي بدأت تلفح ظهرينا؟

عند حافة النهر ازدادت الأشجار كثافة. من المؤكد أن الساحل لم يكن يبعد كثيرًا. تابعنا المسير، لم نستغرق طويلًا حتى وصلنا إلى بيت من الطوب على مقربة من بعض العصي المتبقية مما كان حظيرة فيما مضى. رأينا رجلًا يفكك محركًا. حييناه من على بعد ثم سألناه أين يعيش «إيبانيس». قال لنا أن نتابع المسير إلى أن نبلغ النهر، ومن ثَمَّ نسير بحذاء الساحل حتى نصل إلى حافلة عتيقة. وهناك يمكن أن نجده.

سِرنا بحذاء أرض تغطيها الشجيرات، ثم بحيرة ساحلية تطفو على سطحها زنابق الماء، ثم جبل يعج بالصبار، إلى أن بلغنا منحدر النهر. كان من الغريب أن نرى النهر من الضفة الأخرى، وكأنه يجري في الاتجاه المعاكس، وكأن المياه تتدفق صعودًا، والوقت يسير إلى الوراء. سِرنا على الساحل، مررنا من فوق سلك شائك وأخيرًا رأينا حافلة رمادية اللون، بلا إطارات، موضوعة فوق براميل، برزت من أحد جانبيها تندة من الصفيح. اقتربنا وصفقنا بأيدينا.

fb/mashro3pdf

لم يكن هناك أحد. لم نرَ أي قوارب مربوطة عند الضفة. خطر لنا أن «إيبانيس» ربما كان يصطاد.

جلسنا تحت ظل شجرة، فوق بضعة صناديق على مقربة من موضع نار مطفأة. تحدثنا قليلًا عن كيفية نقل خمس وستين لفافة من القماش إلى هذا الجانب من النهر. سيكون علينا تدبير زورق، والبحث عن مُهرب على استعداد للقيام بعدة رحلات. سنرى. تناولنا الكعكات التي وضعتها في الحقيبة. مر ما يزيد على ساعة.

وفيما نحن نعتزم العودة، ظهر رجل على متن قارب يسير في اتجاه مجرى النهر. جاء يصفر لحنًا، شاردًا. لم يكن وجهه باديًا أسفل القبعة المهترئة. حين لمحنا، خفف السرعة بالمجداف، ونظر إلينا من على مسافة حذرة. بدا أكثر شبابًا مما ينبغي كي يكون هو.

ـ صباح الخير.

قلت محييًا بقوة ولكن بحرارة، محاولًا تهدئته، إذ أدركت أن لقاءه بدخيلَيْن يقفان هناك في انتظاره عند بيته، كشبحين، لم يَرُقْ له إطلاقًا:

ـ نبحث عن «فيرمين إيبانيس».

فرأينا وجهه الأسمر وهو يقول:

fb/mashro3pdf

ـ «فيرمين إيبانييس»؟

ـ أهو أنت؟

فأجاب:

ـ كلَّا. «فيرمين» كان خالي. وقد توفي منذ زمن.

سأله «لويس»، وإن كان أمرًا بديهيًّا:

ـ هل أنت ابن أخته؟

فأجاب:

ـ أجل. عمَّ تبحثان؟

ـ نود أن نعرف إذا كان خالك «فيرمين» ما زال يمتلك لفافة من القماش المرسوم كانت تخص والدنا «خوان سالباتييرًا».

ثم أضفت فاتحًا ذراعيَّ:

ـ لفافة بهذا الحجم، ضخمة. قماش مرسوم.

ظل الرجل يتطلع إلينا. فقلت له:

ـ كان والدنا وخالك صديقَيْن.

أخذ يدنو بقاربه حتى بلغ الضفة، وقد تخلى عن شيء من ريبته. نزل عن القارب، ربط أحد طرفيه إلى جذع

fb/mashro3pdf

شجرة ساقط، وضع كيسًا فوق كتفه واقترب منا، إلا أنه لم يصافحنا. سأله «لويس» بنفاد صبر:

ـ ألا تعرف إذا كانت تلك اللفافة في حوزة خالك؟

فقال الرجل:

ـ كانت في حوزته، بالفعل. كان يحتفظ بها هناك داخل محرك الحافلة، مغلفة ببعض الأكياس. ثم ذهب إلى السجن وتوفي.

ـ وأين هي اللفافة الآن؟

ـ منذ سنوات أعطيتها...

ـ أعطيتها؟

ـ أجل، لـ«صوريا»، مالك «لوس لانارِس». لم يدفع لي مقابلها قط. قال لي إنه سيعطيني فَرسًا ومُهرًا، ولكنه لم يعطني شيئًا قط.

أفرغ «إيبانيس» الكيس فسقطت فوق الرمال بضع سمكات دبقة، قرموط وعدة سمكات شابل. شرع ينظفها في المكان نفسه، في المياه. أسماك الأبراميس، بالكاد ظاهرة في المياه، التهمت نتف الأحشاء.

ـ ألا تعرف إذا كان ذلك السيد «صوريا» قد احتفظ بها؟

fb/mashro3pdf

ـ لا، لا أعرف... قال إنه قد أخذها بغرض التزيين.

انتهى «إيبانيس» من تنظيف الأسماك ودعانا لتناول الطعام هناك، ربما فعل ذلك حين رأى أننا لم نغادر.

ـ ليس عندي طعام فاخر، ولكنه يكفي الجميع. عندي نبيذ أيضًا.

قال «لويس» إن سيارة الأجرة ستأتي إلى الشارع كي تقلنا بعد حين. كنت لأقبل الدعوة عن طيب نفس. دعانا «إيبانيس» إلى نبيذ فاتر في دورق تناوب عليه ثلاثتنا.

وفيما هو يُعد النار حكى لنا أن اللفافة، في صغره، كانت موضوعة تحت غطاء محرك الحافلة، في مكان المحرك سابقًا، على ما يذكر. ذات مرة راح يلقي نظرة بدافع الفضول ليرى ما هذا الشيء فردَّه خاله بلسعات من سوطه. كان المكان فيما مضى عبارة عن قطعة أرض تابعة للبلدية حيث كانت تجمع الأحطاب لزوم إنشاء الطرق. كُلف خاله للعناية بالمعدات وسُمح له بأن يتخذ من الحافلة مسكنًا. بعد ذلك، نضبت الأحطاب ونقلت المعدات إلى موضع آخر. عاش «فيرمين إيبانيس» هناك أعوامًا طوالًا قبل الحكم عليه بالسجن بتهمة قتل رجل جنوب «بايساندو»، في شجار اندلع بإحدى الحانات. توفي في السجن. حينئذ كان ابن أخت «إيبانيس» يعيش

fb/mashro3pdf

في الحافلة بالفعل. وفي وقت لاحق، بدأ المكان يشتهر بالصيد، فعمل لفترة من الوقت في كشك يقدم المشروبات والشواء. ثم بدأ يقام هناك «مهرجان الصيد» في شهر فبراير من كل عام، وكان يقصده الناس من كل مكان، حتى من الأرجنتين والبرازيل. حكى لنا «إيبانيس» أنه خلال أحد المهرجانات بسط القماش كي يطلع عليه «صوريا»، الذي كان قد ابتاع مزرعة «لوس لانارِس» لتوه، فعرض عليه الأخير مقايضتها بفَرس ومُهر. كان «صوريا» مولعًا بالخيول، ووفقًا لما قال «إيبانيس»، كان أحد أجزاء القماش يصور سباق الخيل. فقَبل «إيبانيس»، البالغ من العمر خمسة عشر عامًا حينذاك، العرض المقدم من «صوريا» وساعده على وضع اللفافة في صندوق السيارة، إلا أنه لم يتلقَّ شيئًا في المقابل قط. أحيانًا كان يلتقي بـ«صوريا» مصادفة، فيقول له العجوز:

ـ أعدُّ لك فرسًا بالفعل.

إلا أنه لم يفِ بوعده قط. توفي «صوريا» منذ خمسة أعوام، وخاض أبناؤه نزاعًا قضائيًّا على المزرعة مع بعض الدائنين، فأصبحت الملكية مهجورة.

fb/mashro3pdf

٣٢

ـ ولكن هل أنت متأكد من خلو المكان من الناس؟

ـ المزارع الوحيد يسكن عند مدخل الطريق، ويقضي حياته مخمورًا حتى الثمالة، أو في البلدة.

استغرقنا وقتًا طويلًا حتى نتخذ قرارًا، أو بالأحرى استغرقتُ وقتًا طويلًا حتى أُقنِع «لويس»، الذي لم يرغب في معرفة أي شيء. في النهاية صعد إلى متن القارب، على مضض. كنا قد تركنا سيارة الأجرة تفوتنا، وهو ما اعتبره «لويس» بمثابة إحراق الجسور من خلفنا. أقلَّنا «إيبانييس» بقاربه في اتجاه مجرى النهر، وصولًا إلى مزرعة «لوس لانارِس». ربما كان السبب هو النبيذ الذي لعب برأسي، إذ شعرت بما يشبه السرور، وبدا لي من المضحك أن أرى أخي، موظف مكتب العدل، جالسًا في ذلك القارب الموحل، متشبثًا

fb/mashro3pdf

بالحافة، ويصلح نظارته طوال الوقت بضغطات سريعة من إصبعه الوسطى، كما لو كان يخشى أن تسقط منه في المياه.

سِرنا بحذاء الضفة بلا تجديف، يجرفنا التيار ببطء ولكن بثبات. بعد حين، بدت فجأة أجمة كافور وصنوبر، أكثر غرابة عن تلك البيئة، وبها قدر أقل من الصبار. قال لنا «إيبانيس» إن البيت يقع خلف الأشجار واقترب بنا من الضفة. نزلنا إلى مَرْسى لم تبق منه سوى القوائم.

قال لنا «إيبانيس» فيما يبتعد مجدِّفًا:

ـ سأعود في وقت لاحق.

وقفنا هناك نتلفت حولنا. كنا تائهين أكثر من أي وقت مضى. شرعنا نسير مبتعدين عن النهر ببطء. وبين أنفاسه المتتابعة من شدة التعب، أخذ «لويس» يتلو العبارات نفسها مبدلًا بينها من حين إلى آخر: «لنطلب الإذن أولًا»، «إذا كان مغلقًا فسنغادر»، «لا أعرف أي هراء نفعل هنا»، «أنا أحمق لأنني أتبعك». برز البيت فجأة، وسط الأشجار، بيت كبير من الأحجار له برج ودرابزين. تسمَّرنا في مكاننا. قال «لويس»:

ـ لا بد أن هناك أحدًا.

fb/mashro3pdf

اقتربنا مما كان المتنزه سابقًا عبر المرعى، نتفادى جذوع أشجار ساقطة، وفروعًا يابسة ونبتة خرشوف في طولنا. كنا نتوقف بين الفينة والأخرى للإنصات والكف عن إحداث ضجيج عند سَيرنا فوق الأوراق اليابسة. ولكن لم ينبح كلب واحد، لم نسمع سوى صوت كصرير الجداجد، أو طنين الدبابير، بدا صادرًا عن البيت. وعلى حين غرة، أفزعْنا طائرَ حجل، كما أفزعَنا طائرُ الحجل أيضًا، بصفيره وخفقات جناحَيْه. وصلنا إلى الشرفة. كان ثمَّة عشب بين البلاطات، ومزاريب تداعت تحت وطأة إحدى العواصف، وأعشاش طيور، وغبار... كان الهجران مطبقًا. حُمْنا حول البيت. عند المدخل، صفق «لويس» بيديه، ثم طرق الباب. لم يُجب أحد. دفع الباب، كان موصدًا.

حاولنا اختلاس النظر من خلال شقوق النوافذ، إلا أننا لم نرَ بالداخل سوى خيالات قِطع الأثاث في الظلمة المشوبة بالنور. حُمْنا حول البيت مرة أخرى. وجدت بابًا خشبيًّا، يكاد يكون الجزء السفلي منه متعفنًا.

انحنيت على الباب لأرى إذا كان من الممكن أن نكسر أحد ألواحه. أراد «لويس» أن يغادر. تظاهرت بعدم سماعه.

fb/mashro3pdf

ـ والآن، ماذا ستفعل؟ هل ستقتحم المكان لسرقته؟

حينئذ غضبت، فتوقفت قائلًا له إنني لا أفكر في سرقة أي شيء على الإطلاق، بل على العكس، أفكر في استرداد ما سُرق منا. ثم أضفت:

ـ إذا كنت ستُفقدني صبري، أفضل أن تغادر. اذهب!

فذهب، غاب وسط نباتات الخرشوف.

حاولت خلخلة الباب، ركلته، دفعته بكتفي. أفرغت في الباب شحنة الحنق المتراكم بداخلي نحو أخي. بقيت لوهلة على تلك الحال. كنت حين ينال مني التعب أتوقف، ثم أعاود المحاولة. لقد وصلت إلى هناك، والآن لن أسمح لباب عتيق بالوقوف في طريقي. على الرغم من إصراري لم أحقق شيئًا، بالكاد استطعت خلع بضع شظايا. وفجأة سقط شيء بجواري، عصا. قفزت جانبًا. كان «لويس» وقد أتى بفرع شجرة ضخم. من دون أن ينبس بحرف، وضعه في فجوة الباب الخشبي المتآكل، ليستخدمه كالعتلة. وبالتعاون فيما بيننا استطعنا أن نخلع الجزء السفلي من الباب، حتى صنعنا فتحة يمكن لشخص أن يمر من خلالها. قال لي «لويس»:

fb/mashro3pdf

ـ هيا.

دخلت أولًا. وكأنني دخلت إلى جوف رائحة. رائحة نشادر وعفن، أقوى من أن يمكن معها التنفس. اضطررت لسد أنفي. كانت رائحة وطاويط. توقفتُ في العتمة. تحسست باحثًا عن جدار فتعثرت بشيء من الصفيح. سألني «لويس» وهو ما زال يجتاز الباب:

ـ ماذا حدث؟

ـ لا شيء. حذارِ، توجد أوانٍ هنا.

ألِفَت عيناي الظل ورأيت أننا في غرفة لحفظ المؤن. تسلل قليل من الضوء عبر الفجوة التي صنعناها. فتحنا بابًا عاليًا ثم دلفنا إلى رواق حيث استطعنا تنفس هواء أنظف، وإن لم يخلُ من برودة الشتاء الرطبة. تقدمنا بحذر. كانت ثمَّة أبواب على الجانبين، جميعها موصدة. في نهاية الرواق تعذرت الرؤية تمامًا. وصلنا إلى زاوية. في البداية ظننا الرواق على شكل حرف «L»، ثم «U»، وفي النهاية اكتشفنا أنه مربع، إذ عدنا إلى الباب الذي دخلنا منه. شرعنا نفتح بعض الأبواب على الجانب الأيمن. رأينا مطبخًا عُلقت على جداره أوانٍ ومقالٍ، حجرات فسيحة بها أبسطة وزخارف من البورسلين ومكتب وثلاثة حمامات. فتحنا بابًا على

fb/mashro3pdf

الجانب الآخر، الجانب الداخلي، حيث تعذرت الرؤية تمامًا. سأل «لويس»:

ـ ماذا هناك؟

فأجبته قائلًا:

ـ المكان معتم.

ومن صدى الصوت عرفنا أنها مساحة شاسعة.

دخلنا، إلا أننا لم نستطع أن نتبين شيئًا، فأشعل «لويس» القداحة. وعلى ضوء الشعلة الخافت، رأينا أرائك وسفرة، ولكن وراءنا، وقف حيوان جامدًا، جرذ عملاق، في حجم الخنزير. تراجعنا.

ـ ما هذا؟

لم أنبس بحرف، تسمرت مكاني. فزجره «لويس»:

ـ اذهب! اذهب!

وضرب الأرض بقدمه ليطرده. غير أن الحيوان لم ترف له عين.

بدأت أضحك من فرط الانفعال، إذ انتبهت إلى أنه خنزير ماء محنط. بدا حيًّا، يتنفس، على ضوء شعلة القداحة المتأرجح. مسه «لويس» بقدمه فصدر عنه

fb/mashro3pdf

صوت أجوف. جُبنا المكان بالقداحة مرفوعة عاليًا، كان عبارة عن صالون استُخدم فيما مضى كغرفة معيشة وغرفة طعام. عندما أفقنا من الفزع الذي انتابنا قليلًا، خرجت ثم بدأت أفتح الأبواب. فسألني «لويس» بشيء من الصراخ الهامس:

ـ ماذا تفعل؟

لم أحر جوابًا، كنت أرغب في دخول قدر أكبر من الضوء. درتُ بالردهة من أولها إلى آخرها فاتحًا الأبواب على الجانبين. انساب ضوء النهار عبر الغرف الخارجية ليصل إلى مركز البيت. حين أوشكت على الانتهاء من دورتي بالردهة، سمعت أخي يقول شيئًا. دلفتُ إلى الصالون ورأيته ينظر إلى الأعلى. نظرت حيث كان ينظر، ولكني استغرقت بعض الوقت في إمعان النظر. في النهاية تبينت شيئًا بين السقف المنخفض ومستوى الأبواب، سلسلة من الأشكال، كإفريز يكسو جدران الصالون لتزيينها. كان قماش «سالباتييرًا». ها هو. على الرغم من أن ضوء الشمس كان يتسلل إلى الداخل خافتًا، فقد استطعنا تمييز بضعة جياد وأشكال بشرية. شعرت براحة عظيمة: هناك كان الجسر، المساحة التي سترأب صدعًا طالما أرَّقني في عمل أبي. أخيرًا سأزيح عن صدري ذلك الانقطاع.

fb/mashro3pdf

شعرت بالنشوة التي تغمرنا حين يكتمل الشيء ويصير انسيابيًّا متواصلًا. قلتُ:

ـ ينبغي علينا إنزاله.

وفي الحال شرعنا في العمل.

fb/mashro3pdf

٣٣

اضطررنا لاستخدام قطع الأثاث كسقالة. فوضعنا السفرة الطويلة بالأسفل، وفوقها برجين، الأول عبارة عن خزانة أما الآخر فمكون من طاولتين واطئتين ومقعد. تركت الخزانة لـ«لويس»، إذ كان الجانب الأكثر استقرارًا أنسب له نظرًا لوزنه. اكتشفنا أن القماش مثبت بمسامير إلى بعض الألواح الخشبية. حاولنا نزع الألواح الخشبية إلا أنه كان أمرًا مستحيلًا. لم تكن معنا أدوات. فتشت المطبخ عن شيء قد ينفعنا ثم أخذت بضع سكاكين. في النهاية، اكتشفنا أن الأكثر عملية هو استخدام بعض الشمعدانات الحديدية كنا ننشب قاعدتها أسفل المسامير بإحكام مما يسمح بتحريك الشمعدان كالعتلة لخلعها. إلا أنه كان عملًا شاقًّا. من حين إلى آخر كنا نفكر في تأجيله لليوم التالي، فنقول

fb/mashro3pdf

إنه بإمكاننا العودة بسلم وأدوات، ولكننا كنا نتوقف لوهلة ثم نستأنف العمل.

رأينا جزءًا من القماش يصور سباق خيل. هناك كانت الحيوانات، منفعلة قبل انطلاق السباق، مشدودة الأعصاب، كابحة جماح نفسها، رافعة قوائمها الأمامية عاليًا، وعلى الرغم من ذلك فقد كانت مرهفة، كبهائم ثائرة تقف بأناقة على أطراف أصابعها. وبعد ذلك، في المشهد الذي يصور انطلاق السباق، بدت أعراف الخيل وكأنها تطل خارج اللوحة. فهذا جواد كستنائي لامع، وذلك أصفر شاحب، وذلك ذهبي، وذلك أحمر ناري، وذلك أرقش يغلب عليه الأبيض يتوهج تحت أشعة الشمس، تنطلق جميعها من فوهة بوابة السباق كالزنبرك، هائلة، لها سحر الثيران المنقوشة على جدران الكهوف، عدوانية، يمتطيها فرسان بالغو الضآلة، بالكاد يتشبثون بصهوتها، عاجزين عن فرض سيطرتهم على تلك القوى الجامحة.

عند انتهائنا من نزع ما يقرب من خمسة أمتار، اضطررنا لتحريك السقالة المرتجلة. كان عملًا منهكًا. وعلى الرغم من توخينا الحذر، كان يبدو أن الضجة الصادرة عن تحريكنا قطع الأثاث يمكن سماعها في محيط يبلغ

fb/mashro3pdf

قطره عدة كيلومترات. قضينا المساء كاملًا على تلك الحال. بدأت تظهر على يديَّ بثور. وشعرنا بتخشب في العنق والكتفين بسبب رفعنا ذراعَيْنا عاليًا والبقاء على هذا الوضع. للحظة بحثت عن مياه للشرب، ذهبت إلى المطبخ فلم أجد شيئًا. كانت المياه مقطوعة عن البيت.

جربنا خلع المسامير بأن نشد القماش معًا إلا أنه كان يتمزق، لذا كان ينبغي خلع المسامير واحدًا واحدًا. كنا ننشب قاعدة الشمعدان، ثم نحركه كالعتلة فيخرج المسمار طائرًا في الهواء ونسمعه يهوي فوق البلاط. هكذا أحرزنا تقدمًا. وفي لحظة ما بلغنا جزءًا من اللوحة حيث تُرى امرأة ذات عينين صافيتين، بدا لي أنني أعرفهما. طلبت من «لويس» القداحة، قربتها من الصورة وانتبهت فجأة:

ـ هذه المرأة كانت زميلة أبي في البريد.

ـ هل أنت متأكد؟

فأجبته:

ـ أجل. متأكد.

هناك كانت «إوخينيا روكامورا»، مرسومة من الذاكرة، تدخن عارية على فراش بإحدى حجرات «بارَّانكاليس» السرية. وشمس القيلولة تتكسر إلى شظايا عبر الشباك

fb/mashro3pdf

لتسقط على فخذها الغض.

ـ تعرفت إليها منذ أيام. إنها المرأة التي حكيت لك أنها قد استقبلتني في البريد.

كانت هناك صور أخرى لـ«إوخينيا روكامورا». على الرغم من أن وجهها لم يكن ظاهرًا طوال الوقت، فقد كان من الواضح أنها هي، نائمة أحيانًا، وقد تناثر شعرها المسترسل الكستنائي فوق الملاءات، تطالع كتابًا في أحيان أخرى، فيما تستلقي عارية تحت الضوء الأبيض المتسلل إلى حجرات يتصل بعضها ببعض، فمع أنها الحجرة نفسها متكررة من زوايا مختلفة، فقد رسمها «سالباتييرًا» وكأنها تؤلف بيتًا واحدًا كثير الحجرات، البيت الممتد حيث كان يشاطر تلك المرأة قيلولتها.

أعتقد أن كلينا قد فوجئ بالأمر، فلم يكن لدى أي منا أدنى شك في وجود تلك العلاقة الغرامية. أفترض أن أمي بدورها لم تكن على علم بها. أو ربما كانت على علم بها وتأكدت بنفسها من وضع نهاية للعلاقة الغرامية. مما لا شك فيه أن ثمَّة علاقة جمعت بين «إوخينيا روكامورا» و«سالباتييرًا»، عام ١٩٦١ على الأرجح، العام الذي رُسمت خلاله تلك اللفافة. لم يبد شيئًا من وحي خياله، بل بالأحرى شيئًا مرسومًا بعد وقت

fb/mashro3pdf

قليل من حدوثه، يومًا بيوم، وكأنها يوميات القيلولة. لم يكن من سبيل للتأكد من هذا. كان الأمر يوحي بعلاقة قصيرة، عدة لقاءات، ربما لشهر، من يدري، أو من الممكن أن تكون العلاقة قد استمرت عامًا، اختصره «سالباتيرًا» لاحقًا في ذكراه. إلا أنها بدت علاقة قصيرة، مستحيلة، شديدة، كالصاعقة في لوحته. لا بد أنهما قد قرَّرا الافتراق في لحظة ما. لم يكن لتلك العلاقة أن تستمر. كانت هي تبلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا، أما هو فاثنين وخمسين، والأدهى أنه كان متزوجًا. فضيحة أكبر لا تحتملها بلدة صغيرة.

وفيما نحلُّ القماش، أخذ يتساقط فوق رؤوسنا، حتى بدت صورة تلك المرأة للحظة وكأنها تهوي فوق «الويس» الذي ضاق ذرعًا ونال منه التعب، ولم تكن سعادته كبيرة بكشف حقيقة خيانة أبينا.

نزعنا القماش عن ثلاثة من جدران الغرفة الأربعة التي كان يغطيها ثم توقفنا لبرهة. كانت الخامسة مساءً بالفعل. جلس «لويس» يدخن على إحدى الأرائك المغطاة بالغبار، يتفوه بعبارات متشككة من حين إلى آخر.

ـ «ميجيل»، كان ينبغي أن يتعفن هذا الشيء هنا. إننا نتدخل

fb/mashro3pdf

فيما لا يعنينا. الماضي لا يُنبش هكذا. أتفهمني؟

جلست على أريكة أخرى ولم أحر جوابًا. واصل حديثه:

ـ ما يجري لشخص ينتمي إلى عصره، ولا ينبغي نبشه. لقد طواه النسيان لسبب ما. ينبغي على المرء أن يعيش حياته ويترك الموتى راقدين في سلام.

ذكَّرته بأننا لم نحظ بقدر كبير من الحياة الخاصة، لا أنا ولا هو. تصورت «لويس» في طريقه إلى السوبرماركت بعد الانتهاء من عمله كل ليلة ليشتري صدر دجاجة والقليل من السلاطة، إلا أنني لم أذكر له ذلك.

كنت أهدم تصوراته، فدائمًا ما قاوم «لويس» حضور «سالباتيرًا» المطلق موليًا إياه ظهره، محاولًا طمره بين طيات الزمن. كانت تلك هي الطريقة التي اتبعها كي يصنع حياته الخاصة به. أما الآن فكنت أرغمه على المقاومة بطريقتي، أعني، بقطع ذلك التيه سيرًا حتى نبلغ حافته.

تطلعت إلى القماش وقد أنزلنا بعضه، ثم سألته محاولًا الإقرار بأنه على حق إلى حد ما:

ـ أتذكر كيف أشار لنا في العيادة حين سألناه ماذا نفعل باللوحة؟

fb/mashro3pdf

فقال «لويس» مقلدًا إيماءة «ساليناتيرًا» المطمئنة:

ـ أشار هكذا.

ـ أجل، ولكنه بعد ذلك أشار بإصبعه إلى عينه ثم إلى أمنا.

ـ ثم؟

ـ ظننت أنه كان يعني «لتكُن عينكما على أمكما، اعتنيا بها»، ولكن يبدو لي أنه أراد أن يقول: «افعلا ما شئتما بالقماش، ولكن عينكما على أمكما، عينكما عليها حتى لا ترى ما رسمت من أشياء».

ـ هذا جائز... فهو لم يكن مقتنعًا بإخراج كل شيء إلى النور.

ـ أجل، ولكن الأمر قد قُضي الآن. لا يمكن لهذا أن يتسبب في إهانة لأحد.

لزمنا الصمت حتى لا نستمر في المناقشة حول الأمر نفسه. ثم قال «لويس» مبدلًا مجرى الحديث:

ـ علينا أن نترك هذه اللفافة في أوروجواي. يمكننا إيداعها لدى «إيبانيس». وبهذا تكون لدينا لفافة واحدة على هذا الجانب على الأقل.

شرعنا في العمل مرة أخرى، على عجل، لأن «ألدو»

fb/mashro3pdf

و«بوريس» و«هَنَّا» سيكونون في انتظارنا لإعداد الشواء. ومع ذلك، فقد كان المقطع الأخير أصعبها جميعًا، بسبب البثور. اضطررت للف منديل حول يدي. رُحنا نخلع سلسلة من الرسوم تصور النهر: قوارب خاوية، مربوطة، في الصباح البارد. قوارب متجاورة في قلب المياه، على متنها رجال جمع بينهم ضرب من ضروب اللقاءات السرية. رجلان يتشاجران على الضفة. غموض شديد يكتنف كل شيء. كانت مخيفة بعض الشيء. لم نكن نعرف ماذا سنجد.

قرب نهاية تلك السلسلة من الرسوم التي تصور النهر، ظهرت امرأة سوداء، عارية، كروح هائمة، هاربة، تائهة بين فروع أشجار الخوخ وأوراقها. عندما بدأنا في إنزالها، رأيت خياطة في ذلك الجزء، ترقيعًا ماثلًا. كان ذلك هو الشق الذي أحدثه «فيرمين إيبانييس» وسط الجلبة المثارة يومئذ في المخزن، وأنا في الحادية عشرة من عمري.

أخبرت «لويس» فلم يبدُ أن الأمر قد استرعى اهتمامه، أو ربما كان التعب قد بلغ منه مبلغًا لم يقوَ معه على أن يجيبني. لم يبادلني الحديث حتى انتهينا من العمل. وما إن أنزلنا القماش كاملًا على الأرض، حتى طويناه ثم دحرجناه إلى

fb/mashro3pdf

النافذة. خطر لـ«لويس» أن نلف القماش حول عصا من جديد، كي نتمكن من حمله على كتفينا معًا. استخدمنا فرع الشجرة الذي سبق لنا استخدامه كعتلة. أخرجنا القماش عبر النافذة وحملناه معًا. كان في وزن رجل.

fb/mashro3pdf

٣٤

بلغنا النهر عند مغيب الشمس. كان «إبانيس» في انتظارنا. رآنا فسحب بضعة أحبال كان قد ألقى بها وساعدنا على تحميل القماش على متن القارب. سألناه إذا كان بإمكانه العبور بنا إلى الجانب الآخر فقال:

ـ أجل... ولكن خفر السواحل هناك.

فسألته:

ـ وماذا يمكنهم أن يفعلوا بنا؟

ـ آ... لا يريدون لأحد أن يعبر ليلًا...

فعاودت سؤاله:

ـ كم تتقاضى لقاء العبور بنا إلى الضفة الأخرى؟

ـ خمسين.

fb/mashro3pdf

أخرج لويس خمسين «بيزو» وأعطاها له.

ذهبنا إلى بيت «إيبانيس» أولًا كي نترك اللفافة. وضعناها أسفل بعض الصفائح، مغلفة بالنسيج. تعاون معنا «إيبانيس» بلا سؤال. فاستغللت حسن نواياه لسؤاله عما إذا كان على معرفة بأحد يمتلك قاربًا أكبر حجمًا، زورقًا لنقل الأشياء ليلًا، فباستخدام قاربه يمكننا نقل لفافتين في المرة الواحدة على أقصى تقدير، لا أكثر. ارتسمت على وجهه ابتسامة يشوبها شيء من الخجل وسألنا عما ينبغي علينا نقله. فأجبته:

ـ المزيد من اللفائف كهذه.

ـ كم؟

ـ ما يقرب من ستين لفافة.

ظل يفكر لبضع ثوانٍ، ثم سألنا:

ـ متى تفكران في القيام بذلك؟

ـ غدًا أو بعد غد على أقصى تقدير.

ـ عندما تجيئان، سأكون قد أعددت لكما شيئًا.

عاودنا الصعود إلى متن القارب، والليل يسدل ستائره ببطء. شرع «إيبانيس» يجدف موجهًا مقدم القارب نحو

fb/mashro3pdf

الضفة المقابلة. من حين إلى آخر كان يرفع مجدافيه متوقفًا لوهلة. قررنا أن نعبر في خط مستقيم بقدر المستطاع ومن ثَمَّ نسير بحذاء الضفة إلى أن نبلغ مستوى المخزن، للوصول بأسرع ما يمكن. لعل مدعوينا كانوا يشعرون بالقلق. كان يمكننا قطع تلك المربعات السكنية وصولًا إلى البيت والعودة في اليوم التالي لأخذ السيارة التي تركناها عند رصيف التفريغ الخاص بالجمارك. أطرق ثلاثتنا. لم نسمع سوى ضربات المجداف، ربتات المياه على جانب القارب وأنفاس «إيبانييس». بعد ذلك بدأت تزعجنا ذبابات الفرس التي أخذت تطن في أسماعنا.

وفي لحظة ما رأينا زورقًا له أضواء ساطعة. رآه «إيبانييس»، بيد أنه لم يقل شيئًا. واصل التجديف على نفس الوتيرة. مرَّ الزورق سريعًا وبعيدًا، بدون الانتباه إلينا. في وقت لاحق قال «إيبانييس»:

ـ إنهم خفر السواحل، يثيرون الكثير من المتاعب.

أسدل الليل ستائره إلى حد كدنا معه لا يتبين أحدنا وجه الآخر. وحده خيال «إيبانييس» الأسود مقابل السماء الماثلة إلى البرتقالية. في واحدة من وقفاته، بينما يستريح قليلًا، سألته إذا كان يريدني أن أتولى التجديف. فأجابني:

ـ كلَّا، أنا بخير.

fb/mashro3pdf

وللحظة بدا أنه قد تصلب في مكانه بلا حراك. تساءلت عما يفعل. وفجأة، بضربة واحدة سريعة وموفقة، اصطاد ذبابة فرس كانت تزعجه. ألقى بالحشرة ميتة في المياه وتابع التجديف.

أطرقتُ، أكاد أكون مشدوهًا، أتطلع إلى خياله. من يكون ذلك الرجل الذي يجدف؟ شعرت بخوف، وبحيرة عظيمة. كنا في قلب النهر، وبالكاد بدت أضواء خافتة على الجانب الآخر.

سِرنا في اتجاه مجرى النهر إلى أن بلغنا المرسى العتيق.

ـ لا ينبغي إثارة الجلبة أو إشعال السجائر في هذه الناحية، فهناك من يطلقون بنادقهم على القوارب التي تمر عن قرب.

سأله «لويس»:

ـ لماذا؟

فأجابه «إيبانييس»:

ـ للمتعة، لتجربة إطلاق النار. الكثير من الأولاد المدمنين.

في قلب الصمت سمعنا جلبة، وكأنها آتية من حفل ضخم، على بعد مربعات سكنية قليلة، ورأينا وهجًا في السماء. نورًا ساطعًا.

fb/mashro3pdf

شعرنا بمقدم القارب يغوص في الرمال فنزلنا. قال «لويس»:

ـ إلى اللقاء بعد أيام.

فأجابه «إيبانيس»:

ـ أراكما على خير.

ثم ابتعد مجدفًا.

كان على وشك أن يغيب عن ناظرينا في العتمة حين ناديته:

ـ «إيبانيس»!

ـ ماذا؟

حاولت أن أتبينه إلا أنه كان قد غاب في الليل. مع ذلك فقد بدا صوته قريبًا لا يزال، ربما بسبب ذلك التأثير الغريب الذي يتميز به الصوت، إذ ينساب فوق المياه الساكنة من دون أن يفقد قوته.

ـ هل توفيت أمك؟

فأجابني من مكانه وسط الظلال:

ـ أجل، منذ زمن.

ـ هل كانت سوداء؟

fb/mashro3pdf

ـ أجل، كانت سوداء.

ـ وماذا عن أبيك؟

ـ لم أعرفه.

ـ ألا تعرف عنه أي شيء؟

أطرق لحظة لم يحر خلالها جوابًا، ثم جاء صوته أبعد من ذي قبل:

ـ أعرف أنه كان أخرس، لا أكثر.

fb/mashro3pdf

٣٥

صعد «لويس» المنحدر أمامي وأخذ يسير على عجل، بلا توقف. هل سمع ما سمعت؟ ناديته:

ـ «لويس»، «لويس»!

لم أره يستدير، لم أنتبه إلا وقد انقض عليَّ جاذبًا قميصي بشدة.

ـ كيف تسأله هذا السؤال؟ كيف تسأله هذا السؤال؟

أردت أن أفلت من قبضته. كنت مصدومًا بالقدر ذاته. قلت له أن يتركني، جذبت يديه، وحاولت دفعه. تصارعنا. قلت له:

ـ اتركني!

إلا أنه ما انفك يهزني بشدة:

fb/mashro3pdf

ـ كيف تسأله هذا السؤال؟

لم يكن لأي شيء معنى. دفعته بقوة فسقطنا على الأرض. وكأننا صرنا بلا عمر تحت جنح الظلام. فتشاجرنا كما كنا نفعل في سن المراهقة.

لم يفلتني «لويس». نبحتْ كلاب المربع السكني، بدا وكأنه شجار سكارى. قلت له أكثر من مرة إنه ليس ذنبي. استطعت الوقوف على قدميَّ والإفلات من قبضته أخيرًا. ظل جالسًا في منتصف الطريق الترابية.

انتظرته، ولكنه لم يقم، تابعت مسيري ثم سمعته قادمًا من خلفي. هل كان لنا أخ غير شقيق؟ ربما أنجب «سالباتييرًا» ابنًا من تلك المرأة السوداء التي ظهرت مرسومة في اللوحة. فثارت ثائرة «إيبانييس» الأسود حين تعرف على أخته في اللوحة خلال سهرة الأنس التي أقيمت ليلتها. بل وربما كان يعرف أن أخته تحمل ابن «سالباتييرًا». ولهذا شقَّ «إيبانييس» الأسود اللوحة وسرقها أو تعاون مع «خوردان» على سرقتها في وقت لاحق. أيكون هذا ما جرى؟ فضلًا عن علاقته الغرامية بـ«إوخينيا روكامورا»، امرأة البريد؟ أيكون ثمَّة نساء أخريات لن نعرف عنهن شيئًا أبدًا؟ أبناء آخرون؟

نزل كل هذا عليَّ ممزوجًا بالتعب. شعرت بأنني منهك،

fb/mashro3pdf

مشوش الفكر داخل جسدي. من كان أبي؟ بدا لي أنني لم أكن أعرفه. بدا لي أنني رأيته لتوي يجدف بقاربنا، وخياله مقابل السماء البرتقالية. كان «سالباتيرًا» كضفتَي النهر. أمي وتلك الأوروجوانية السوداء. على أي من الضفتين كان؟ ربما كان يتوارى دائمًا هناك، حيث تتلاقى الضفتان أسفل المياه.

اقتربنا أكثر فأكثر من الجلبة التي بدت صادرة عن موضع لاحق. رأينا بعض الناس يركضون ناحية الوهج على بُعد بضعة مربعات سكنية من هناك. ظننت أن هناك عرضًا فنيًّا أمام السوبرماركت. مر بنا ولد يركض فسألته:

ـ ماذا هناك؟

فأجابني:

ـ حريق.

اقتربت مسرعًا، ولكن فيما يبدو، شيء ما في دخيلة نفسي كان يسير إلى الخلف، هاربًا. ومع كل خطوة أخطوها أخذ يتضح أن ما أخشاه قد وقع.

fb/mashro3pdf

٣٦

كان المخزن يحترق.

أعرف أنني ركضت نحوه فاضطر بعض الجيران لاعتراض طريقي. ولكنْ في ذهني صور مشوشة لتلك اللحظة. اندلعت النيران في المخزن، بدا أن السقف قد انهار، وأطلت ألسنة اللهب عاليًا بعنف. صرخت فيهم أن يتصلوا برجال الإطفاء، فقالوا لي إنهم في الطريق. من تصرفاتي ظنوا أن هناك أحدًا بالداخل. أذكر الحرارة التي سرت في جسدي. والإحساس بعدم قدرتي على قبول ما يجري. كان شيئًا مجحفًا أكثر مما ينبغي. نتاج حياة بأكملها يتبدد في النيران. يائسًا رحت أطلب ماء ودلاء، إلا أنهم جذبوني من ثيابي محاولين تهدئتي، لأن هذا كان ضربًا من العبث، ولكني قاومت. لم أقدر على قبول ما يجري. وكأن النيران قد اندلعت في حياتي وحياة أسرتي. ذاكرتي، طفولتي.

fb/mashro3pdf

الوقت الذي قضيناه معًا، سنوات «ساليناتيرًا»، ألوانه وجهوده، موهبته، أيامه، شغفه الشديد والصامت بالعالم. كل شيء كان يحترق. المغزى من وراء حياته، الجهود التي بذلناها أنا و«لويس» وأمي. صور «إستيلا» حية في اللوحة، عيناها وكأنهما على وشك أن تنظرا إليك. النهر اللانهائي يحترق أبدًا. لم يكن من العدل في شيء.

وضع «لويس» ذراعه على كتفي ورأيته يبكي. هكذا بقينا نشاهد، نتنفس هواء العجز الساخن، لعدم مقدرتنا على إطفاء ذلك الجحيم. القماش والزيت المستخدم في رسم اللوحة جعلا اللفائف تتأجج كمشاعل عملاقة. وصل «ألدو» و«بوريس» و«هَنَّا»، بعد أن كانوا في انتظارنا عند باب البيت. لم يستطيعوا تصديق أعينهم، كانوا يسألون عما جرى فنجيبهم بالسؤال نفسه. قالوا إنهم قد انتهوا من العمل في السابعة. أغلقوا الباب بالقفل. لم يتركوا شيئًا موقدًا. ولحسن الحظ، كانوا قد أخرجوا الماسح الضوئي والمعدات نظرًا لأنه اليوم الأخير. ظل «بوريس» يشاهد ساكنًا، وقد أمسك بزجاجة النبيذ لتناولها مع الشواء، ثم راح يسير في دوائر، يسب ويلعن بالهولندية، ثم يعاود التوقف. كلٌ كان ينعي حظه على طريقته. اقترب الجيران للفرجة، يتسلون بما يجري، ولا يتفهمون فداحة الخسارة.

fb/mashro3pdf

ثم وصل رجال الإطفاء، إلا أنهم لم يستطيعوا عمل أي شيء. سألونا عما يوجد بالداخل، وحين أوضحنا لهم قالوا إنها مواد ذات قابلية عالية للاشتعال، وإن كل ما يمكنهم فعله هو الحيلولة دون امتداد ألسنة النيران إلى الأراضي المجاورة.

وبمَ يجدي الحديث عن حزني لمرأى المكان يحترق طوال الليل، وعن بزوغ الفجر حين استطعنا أخيرًا أن ندخل إلى ذلك الشياط والرماد الأسود الغارق في مستنقع من المياه، والدعامات المعدنية المقوسة، والموقد الذي ظل وحده قائمًا؟ لم نتمكن من استعادة متر واحد من لوحة «سالباتييرًا» المحفوظة في المخزن.

fb/mashro3pdf

٣٧

في الوقت الراهن، يقوم في الموضع نفسه موقف للسيارات. كان ذلك ما يريده «بالدوني». رأيته في فيلم وثائقي فرنسي عن حياة «سالباتييرًا» وعمله. لم يمكن التحقق من كون الحريق متعمدًا، ولا من مسؤولية «بالدوني» الجنائية. ومع ذلك فلا شك أن ما حدث من صنع جماعته. كان باب المخزن قد تعرض للاقتحام. فادعى «بالدوني» أن الجناة هم خصومه السياسيون، إذ اقتحموا المكان ظنًّا منهم بأن المخزن ملك له. ووفقًا لادعائه، يفترض أنهم كانوا يعتقدون بوجود تبرعات مختلسة بالداخل، كالمراتب وصناديق الطعام، إلا أنهم لم يجدوا شيئًا، فأضرموا النيران في المكان بدافع الانتقام.

من جانبنا، بعنا قطعة الأرض لشخص آخر حتى لا نبيعها

fb/mashro3pdf

لـ«بالدوني»، إلا أن ذلك الشخص باعها له بدوره بعد وقت قصير.

استعدنا اللفافة الباقية في حوزة «إيبانييس»، على الجانب الأوروجواني. ذهبت برفقة الهولنديين عبر الجسر الدولي. لم يرغب «لويس» في المجيء. في حين لم يستطع «ألدو» لعدم حيازته أوراقًا ثبوتية. فذهبت مع «هَنًّا» و«بوريس»، حيث نجحنا في عمل مسح ضوئي للفافة الوحيدة الناجية من الحريق.

في لحظة ما استطعت الانفراد بـ«إيبانييس» قليلًا، وبُحت له بما أعتقد. قلت له إن أباه ربما كان «ساليناتيرًا»، وإنه قد يكون أخي غير الشقيق. لم ألحظ عليه رد فعل قويًا، وكأنه لا يهتم، أو كأن الخبر قد تأخر إلى حد لا يسترعي معه اهتمامه. شعرت بضرورة إطلاعه على الأمر على الرغم من مقدار الحرج الذي قد يسببه لنا. قلت له إن بعض الفضل يرجع إليه في إنقاذ الجزء الوحيد الباقي من لوحة «ساليناتيرًا». حكيت له عن الحريق فأعرب عن أسفه لكونه لن ينقل اللفائف، إذ كان قد اتفق مع مالك زورق كبير بما يكفي، وفقًا لقوله.

أخذ «بوريس» و«هَنًّا» لفافة القماش الوحيدة والعمل

fb/mashro3pdf

مرقمنًا بالكامل. ثم ادعيا في الجمارك ببساطة أن القماش من رسمهما فلم تواجههما أي مشاكل. هكذا وصل القماش إلى متحف «رويل»، بأمستردام.

fb/mashro3pdf

٣٨

منذ زمن قرأت هذه العبارة: «لم يترك لي الرب موضعًا خاويًا في هذا الكون سوى الصفحة». لا أذكر أين قرأتها. إلا أنني تأثرت بها، لإحساسي بالشعور نفسه نحو أبي. لم أكن مؤمنًا يومًا، إذ إن الفكرة المتمثلة في إضافة أب روحي إلى الأب البيولوجي الهائل الذي حظيت به كانت تبدو لي خانقة. لذا فقد فهمت تلك العبارة على النحو التالي: «لم يترك لي أبي موضعًا خاويًا في هذا الكون سوى الصفحة». يشغل المرء تلك الأمكنة التي يتركها الآباء خاوية. فشغل «سالباتييرًا» ذلك الهامش البعيد عن آمال جدي الرعوية، مهيمنًا على الرسم والصورة. أما أنا فقد احتفظت لنفسي بالكلمات التي نحاها خرس «سالباتييرًا» جانبًا. بدأت في الكتابة منذ بضعة أعوام. أشعر بأن هذا المكان، ذلك الفضاء على الورقة الخاوية

fb/mashro3pdf

يخصني، بغض النظر عن النتائج. في هذا المستطيل، ثمَّة متسع للعالم برمته.

ابني «جاستون» موسيقي. عازف جيتار في فرقة موسيقية. ويُبلي بلاءً حسنًا. يعيش في برشلونة. ذهبت لزيارته منذ عامين، وبحثت عن عمل بلا جدوى، ثم عدت أدراجي في نهاية المطاف. أعيش الآن في «جواليجواي»، على بعد ساعات قلائل من «بارَّانكاليس». أعمل مساءً بصحيفة يومية محلية. وفي الصباح أكتب نصوصي وأتمشى في الشوارع الهادئة.

fb/mashro3pdf

٣٩

في إحدى العطلات الأسبوعية، وأنا برفقة «جاستون»، سافرنا إلى أمستردام جوًّا لزيارة متحف «رويل». ذهبت نزولًا على طلبه. اضطررت لأن أدوس على كبريائي، بعد أن أقسمت بألا أضع في المكان قدمًا قط. فقد توترت العلاقة بيننا وبين مؤسسة المتحف، لأنهم لم يدفعوا سوى خمسة بالمائة من المبلغ المعروض.

أقنعني ابني. وصلنا ذات صباح إلى المبنى الجديد الذي يضم مجموعة أمريكا اللاتينية الفنية، بالقرب من ميدان «نيوماركت». أودعنا معطفينا في حجرة المعاطف، اشترينا تذكرتين ثم ذهبنا إلى موضع القماش الذي أنقذناه أنا و«لويس»، حيث يشغل الجدار كاملًا في إحدى القاعات. كان من الغريب أن أرى هناك، على الجانب الآخر من العالم، وعلى الأضواء الصناعية،

fb/mashro3pdf

حميمية قيلولة «إوخينيا روكامورا» التي يبدو أنها، في إحدى اللحظات، تحلم بخيول ترفع قوائمها الأمامية، ثم تنطلق عدوًا في السباق مندفعة إلى أن تبلغ الشاطئ، وتعبر النهر بلا فرسان على صهواتها إلى الضفة المقابلة، حيث تتوارى أم أخي غير الشقيق «إيبانييس»، سوداء البشرة، وسط الظلال الخضراء.

إلا أن المفاجأة الأعظم كانت حين نزلنا الدرج متجهين إلى الجناح القديم، وفجأةً، على جدار رواق طويل ملتوٍ، رأينا لوحة «سالباتييرًا». تنبعث منها أضواء مفعمة بالحركة، كمعارض الأحياء المائية. تمر على شاشة في حجم القماش نفسه بدقة.

العمل كاملًا، مرقمنًا، يمر ببطء من اليمين إلى اليسار، وكأن المُشاهد هو من ينساب في اتجاه مجرى النهر، أو في اتجاه مجرى اللوحة. جلستُ و«جاستون» لمشاهدة اللوحة. رأينا أشياء رسمها «سالباتييرًا» قبل وفاته: الطباخة العوراء التي داوته عندما كاد الحصان يودي بحياته، صديقه «خوردان» يعزف الأكورديون الذي ترقرقت منه خيوط المياه والأسماك، بنات عمه عاريات في النهر، تحت ذلك الضوء الناعم المنبعث من الصفصاف، أمي ترتشف المتَّة وحيدة في فناء البيت الأخير. لاحظت

fb/mashro3pdf

كيف يمر الزائرون ويجلسون على الأريكة الموضوعة بطول الجدار لمشاهدة اللوحة حينًا. الآن يمكن أن يراها الجميع. لا بأس بما حققناه أنا و«لويس»، في نهاية المطاف. رأيت وجوه الزائرين ترتسم عليها ابتسامة دهشة في حضرة صور «ساليناتيرًا» الغريبة، وضيائه وألوانه. الآن اجتمع كل شيء، الآن يمكن للعمل أن ينساب تامًّا، متواصلًا، بلا فجوات، وأنا برفقة ابني البالغ من العمر ثلاثة وعشرين عامًا، الذي استطاع رؤية صنيع جده، تلك اللوحة التي كانت تعانقنا جميعًا، كفضاء حيث يمكن للكائنات أن تتحرك بحرية، بلا حدود، إذ لم يكن ثمَّة حواف، ولا نهاية، لأننا رأينا، بعد أن بقيت هناك جالسًا مع «جاستون» حينًا، أن الأسماك ودوائر المياه المرسومة على ما حسبناه ختام اللفافة الأخيرة من اللوحة تلتئم على أكمل وجه مع دوائر المياه والأسماك في البداية التي رسمها «ساليناتيرًا» وعمره لم يتجاوز العشرين عامًا.

fb/mashro3pdf

«أحد أكثر كُتاب أمريكا اللاتينية المعاصرين إثارة للاهتمام... كاتب استثنائي»

«كيميرا»

«رواية مدهشة، حسية وممتعة، مبنية على متاهة من الألغاز والاكتشافات المتشابكة»

«لا فلنجارديا»

«اندماج مذهل بين المحتوى والشكل. «بيدرو مايرال» هو اكتشافي الشخصي فيما نُشر هذا العام»

«إل بايس»

«هذه الرواية المُلغزة تبهج بأسلوبها الرزين»

«بابليشرز ويكلي»

«موهبة، ومهارات المراقبة، وجاذبية، وحس للفكاهة، وُضعت كلها في خدمة سرد نضر وحكيم، ذي طابع قوي وملحمي»

«إل موندو»

تعرّض سالباتييرا لحادث خطير عندما كان في التاسعة من عمره، وبسببه فقدَ القدرة على الكلام. وفي سن العشرين، بدأ يرسم يومياته على لفائف من القماش. بلغت في النهاية ستين لفافة بطول ٤ كيلومترات، ليس فيها أطر ولا حدود: لفائف متتابعة تحاكي انسياب النهر اللانهائي الذي يفصل البلدة الأرجنتينية عن الأوروجواي.

لكن عندما يعود ابناه إلى البلدة بعد وفاته، لا يجدان في المخزن الذي كان يعمل فيه والدهما إلا تسعًا وخمسين لفافة. في رحلة البحث عن لفافة عام ١٩٦١ الضائعة بين الأرجنتين والأوروجواي، سيكتشف الأخوان أسرارًا عائلية لم تكن لتخطر في بالهما.

رواية شيقة ومؤثرة في آنٍ، عن تداخل الحب والفن في نسيج حياتنا.

وُلد «بيدرو مايرال» في بوينس آيريس عام ١٩٧٠. نشر ديوانه الشعري الأول عام ١٩٩٦، وصدرت روايته الأولى: «ليلة مع سابرينا لوف»، عام ١٩٩٨، التي حازت جائزة «كلارين» المرموقة، وتحولت إلى فيلم عام ٢٠٠٠. تُرجمت أعماله إلى لغات عديدة، واختير عام ٢٠٠٧ بين كُتاب أمريكا اللاتينية الشباب الأشهر ضمن فعالية «بوغوتا ٣٩».

حازت رواية «سالباتييرا» إعجاب النقاد والجمهور، واختيرت الترجمة الأمريكية ضمن قائمة «أفضل كتب ٢٠١٣» في «ذا نيو ريبابليك»، وقائمة «الترجمات المتميزة لعام ٢٠١٣» في موقع «ورلد ليتراتشر توداي»، والقائمة الطويلة لأفضل الكتب المترجمة في الولايات المتحدة عام

fb/mashro3pdf